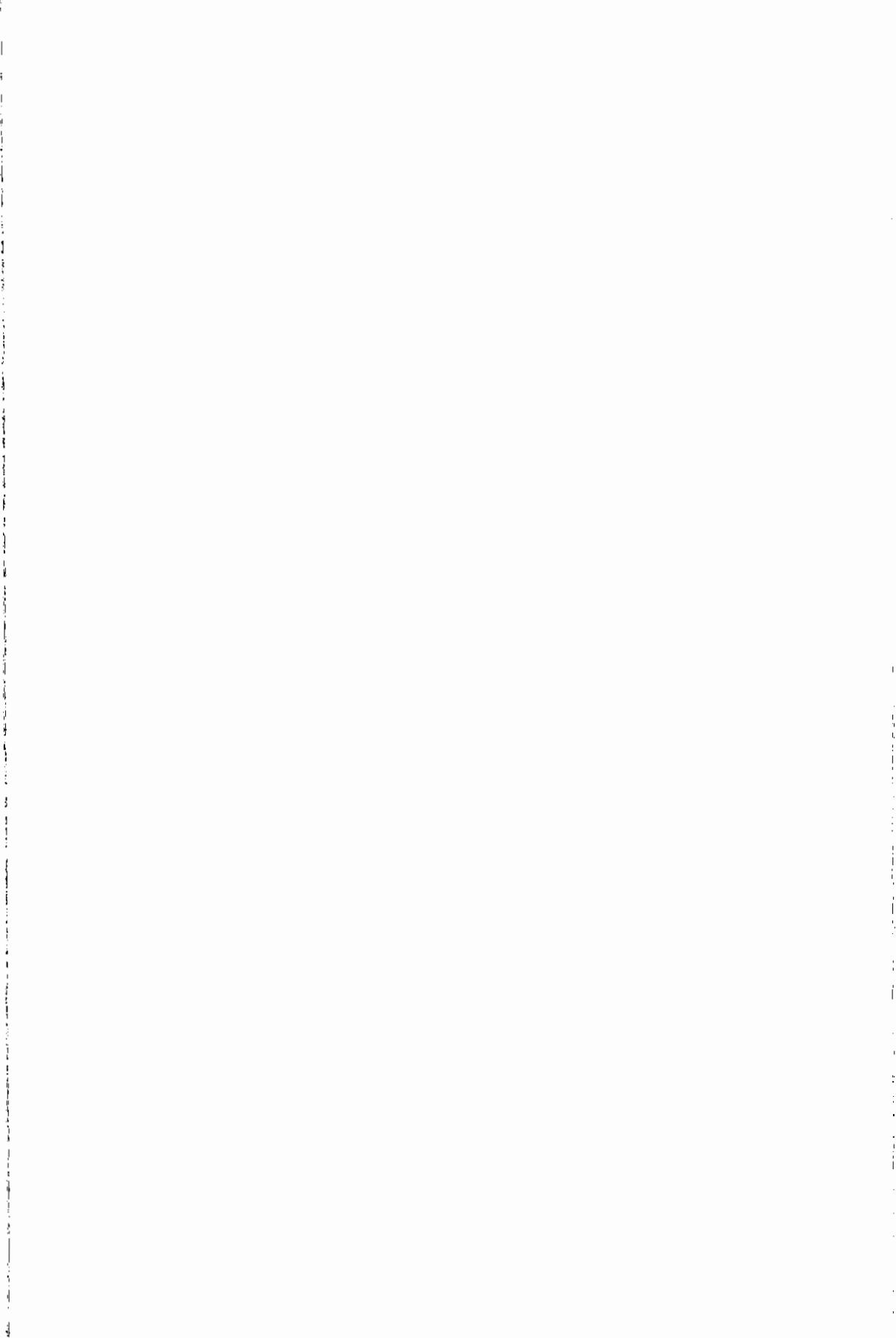


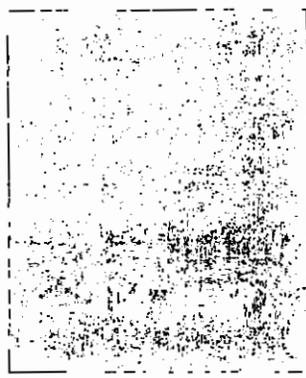
الفصل الثالث

مبادئ التعلم عند علماء المسلمين

ويتضمن المبادئ الآتية :

- * مبدأ توفير الدوافع .
- * مبدأ الاستعداد للتعلم .
- * مبدأ التدرج في التعلم .
- * مبدأ التغذية الراجعة .
- * مبدأ الاستمرار في التعلم .





مبادئ التعلم عند علماء المسلمين

١- مقدمة:

يولد الإنسان ضعيفاً لا يقدر على شيء ، وجاهلاً لا يعرف شيئاً ، ثم يمده الله عز وجل بالقوى التي تؤهله ليقوى ويتعلم . قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : ٧٨] ، ومن ثم يبدأ الإنسان رحلته بالتعلم في أثناء مراحل نموه المختلفة ، فيتعلم المهارات والمعارف ، ويتمكن من التكيف مع البيئة المحيطة به ، ويستطيع مواجهة المشكلات التي تعترضه في حياته .

لقد أمضى علماء النفس زمناً طويلاً يدرسون النفس الإنسانية ، بجوانبها المختلفة ، وكشفوا عن جوانب مهمة فيها ، تخص كيفية اكتسابها المعرفة ، وكيفية توظيفها للإفادة منها في عملية التعليم والتعلم ، والحياة التي يعيشها الفرد . [كلاين ، ٢٠٠٣ ، ١/١٧ - ١٨] . فاستنبطوا مبادئ كثيرة ، يمكن لها توجيه عملية التعليم ، بحيث تجري (عملية التعليم أو التدريس بشكل سهل على التلاميذ امتلاك المعارف ، ويساعد في تكوين القدرات والمهارات لديهم (. . .) . لقد أكدت التجارب والأبحاث التربوية أهمية هذه المبادئ ، ودورها في نجاح العملية التربوية وتحقيق أهدافها) . [بشارة ، ١٩٨٣ ، ٢٠٩ - ٢١٠] .

ولا يخفى علاقة هذه المبادئ بأصول التدريس ؛ إذ إنها تشكل بعض مكوناته ومشمولاته ، ولا ينكر أثر هذه المبادئ في نجاح عملية التدريس ، لذلك أفرزت المداخل الكبرى في التدريس مبادئ عامة مشتقة من نظريات علم النفس ، يسترشد بها في التدريس .

فمبدأ الدافعية والتغذية الراجعة ، والتعزيز ، ومراعاة قدرات المتعلمين واستعداداتهم ، والتدرج في تعليمهم . . . إلخ ، تؤكد ما مدارس علم النفس ،

ويسعى المربون لتطبيقها في عملية التدريس ، واختيار طرائق التدريس المتناسبة مع تلك المبادئ .

إن تلك المبادئ التي لا يستغنى عنها اليوم في العملية التعليمية التعلمية لم يكن ابتداعها مرتبطاً بعلماء التربية بعامة وعلماء النفس بخاصة فحسب ، بل إن علماء المسلمين أسهموا - من خلال تجاربهم الشخصية في مجال التعليم - في الإشارة إليها ، وبيان أهميتها وضرورة توظيفها تربوياً ، وطبقوها في تعليمهم ، وطلبوا إلى المتعلم معرفتها وتطبيقها عند تعلمه .

وسيعرض الباحث في هذا الفصل أهم مبادئ التعلم: الدافعية ، والاستعداد ، والتدرج في التعلم ، والاستمرار ، والتغذية الراجعة ، التي نادى بها علماء المسلمين ، ودعوا إلى مراعاتها لتحقيق أفضل نتائج التعليم والتعلم ، ومقارنتها بالفكر التربوي المعاصر عند الحاجة ، مستفيداً في هذا الفصل مما كتبه الباحث في رسالة الماجستير «إسهامات برهان الإسلام الزرنوجي في مجال طرائق التدريس» عن مبادئ التعلم لدى الزرنوجي ، مضيفاً إليه آراء علماء المسلمين حول هذه المبادئ .

٢ - أهم مبادئ التعلم عند علماء المسلمين

١/٢ - مبدأ توفير الدوافع

١/١/٢ - أهمية الدافعية وتعريفها:

للدافعية أهمية كبرى في عملية التعلم وتوجيه السلوك؛ إذ لا يوجد تعلم من غير دافع كافٍ يترجم التعلم إلى سلوك. [كلاين ، ٢٠٠٣ ، ٢٤/١ ، عاقل ، ١٩٨١ ، ٢٠]. والمعلم مدعو إلى أن يستثمر هذه الدوافع لتنمية التعلم وتوجيه السلوك عند المتعلمين ، وبناء شخصيتهم ، وإثارتهم بغية الحصول على تعلم أفضل ؛ ولهذا كان على المعلم أن يستثمر الدوافع الثانوية؛ كالميول والرغبات والاتجاهات وحاجة التلاميذ إلى استحسان زملاء ، وحاجاتهم إلى إرضاء المعلم ، وكسب مودته ورضائه ، وارتفاع مستوى الطموح والثواب والعقاب ، وبعض المحفزات الأخرى؛ كالجوائز الأدبية والمالية ، وهذه كلها وسائل يستطيع المعلم أن يسخرها لخدمة علمية التعلم. [الغريب ، ١٩٧١ ، ٥٠٠ - ٥٠١].

ويمكن تعريف الدافعية بأنها: (الحالة النفسية الداخلية أو الخارجية للمتعلم التي تحرك سلوكه وتوجهه نحو تحقيق غرض معين ، وتحافظ على استمراريته ، حتى

يتحقق ذلك الهدف). [قطامي ، ٢٠٠٠ ، ٤٢٧]. وعرف الدافع أيضاً بأنه: (حالة من الإثارة أو التنبه داخل الكائن العضوي في الإنسان والحيوان ، تؤدي إلى سلوك باحث عن هدف ، وتنتج هذه الحالة عن حالة ما ، وتعمل على تحريك السلوك وتنشيطه وتوجيهه). [عبد الخالق ، د. ت ، ٣٦١]. ومن خلال التعريفين السابقين للدافعية يتضح أنها ليست ضرورية لبدئ التعلم فحسب ، بل لا بد منها للاستمرار فيه وإتقانه واستخدامه في مواقف جديدة ، بالإضافة إلى أنها تمثل قوة فعّالة ومؤثرة في العمليات العقلية. وللدافعية أربعة تأثيرات مهمة في التدريس هي:

١ - التنشيط: فهي تحرك طاقة المتعلمين ، فتجعلهم نشطين ومشاركين ومهتمين .

٢ - التوجيه: فهي توجه السلوك نحو هدف ؛ أي: توجه المتعلم نحو التعلم .

٣ - الاختيار: فهي تساعد المتعلمين على انتقاء الاستجابات الصحيحة ، والعمل على تعزيزها .

٤ - الاستمرارية: فهي تسهم في تشكيل سلوك المتعلمين». [العالي ، ١٩٩٦ ، ٦٤ - ٦٥].

٢ / ١ / ٢ - أنواع الدوافع:

إنّ الحديث عن الدافعية وأنواع الدوافع واسع ، وسيتم التركيز على الدوافع التي تتعلق مباشرة بموضوع التعلم ، ولا سيما تلك التي أشار إليها علماء المسلمين واهتموا بتنميتها ، وهي: الدافع المعرفي ، والدافع التنافسي ، ودافع الإنجاز .

١ / ٢ / ١ - الدافع المعرفي:

إنّ للدافع المعرفي دوراً مهماً في عملية التعلم ، ويتمثل هذا الدافع (بالرغبة في المعرفة والفهم ، ومعالجة المعلومات ، وصياغة المشكلات وحلها. إنّ تأثير البيئة المحيطة بالفرد لها علاقة وثيقة بتنمية هذا الدافع (. . .) فالممارسات الناجمة ، وتوقع النواتج المشبعة (. . .) ذات أثر بعيد في درجة ظهوره). [منصور ، ١٩٩٣ ، ٥١].

اهتم علماء المسلمين بهذا النوع من الدوافع ، وسعوا إلى تنمية ميول المتعلمين واهتمامهم بتحصيل العلم ، والاستعانة عليه بالوسائل المختلفة التي تبعث في نفوسهم حب التعلم . ومن الأساليب والوسائل التي ذكروها صراحة ، أو أشاروا

إليها لتنشيط المتعلمين واستثارة دوافعهم ، اختيار الظروف المناسبة للتعلم تبعاً للموضوعات وإمكانية المتعلمين وحاجاتهم .

وإثارة السلوك المرغوب فيه من خلال التشويق والترغيب الفوري والمؤجل ، وتنوع هذه المعززات ، ببيان فضائل العلم في الدنيا والآخرة ، وتنمية ميول المتعلمين بتوفير خبرات علمية غنية ومشوقة يتمتع بها المعلمون ؛ إذ إنّ تمكّن المعلمين من مادتهم العلمية ، وخبراتهم التجريبية في ميدان التعليم ، وشهرتهم في مجالات اختصاصهم يشجع اهتمام المتعلمين ، ويدفعهم نحو أفضل أنواع التعلم ، وتوجيه المتعلم نحو طلب العلم ، وحثه على بذل قصارى جهده في السعي إلى العلم وتحصيله ، والمصارعة إلى الإفادة من الوقت في تحصيل العلوم النافعة .

وهناك نصوص كثيرة لأولئك العلماء ، تشير إلى ما سبق ، يمكن ذكر بعض منها باختصار .

لقد نقل الماوردي أقوالاً لبعض الصحابة والحكماء فقال: (قال علي بن أبي طالب: الناس أبناء ما يحسنون . وقال مصعب بن الزبير [بن العوام] لابنه: تعلم العلم ، فإن يكن لك مال ، كان لك جمالاً ، وإن لم يكن لك مال ، كان لك مالاً .

وقال عبد الملك بن مروان لابنيه: يا بني تعلموا العلم ، فإن كنتم سادة فقتم ، وإن كنتم سُوقَة عثتم ، (. . .) وقال بعض البلغاء: تعلم العلم ، فإنه يقومك ويسدّدك صغيراً ، ويقدمك ويسودك كبيراً ، ويصلح زيفك وفسادك ، ويرغم عدوك وحاسدك ، ويقوم عوجك وميلك ، ويصحح همتك وأملك (. . .) وقال ابن المعتز [عبد الله الشاعر العباسي]: العالم يعرف الجاهل ؛ لأنه كان جاهلاً ، والجاهل لا يعرف العالم ؛ لأنه لم يكن عالماً . (. . .) قال رسول الله ﷺ : «فضل العلم خير من فضل العبادة» [الحديث أخرجه الحاكم في (المستدرک) ، كتاب العلم ، رقم / ٣١٧ / ، ١ / ١٧١] ، وإنما كان كذلك ؛ لأن العلم يبعث على فعل العبادة ، والعبادة مع خلو فاعلها من العلم بها ، قد لا تكون عبادة) . [الماوردي ، ٢٤ - ٢٦] .

ويبين الماوردي أهمية العلاقة بين الدافعية والتعلم ، من خلال الربط بين الدافعية والوسائل التي تسهم في تحقيقها ، وأهم الوسائل التي تعمل على تعزيز الدافعية برأيه ؛ الترغيب (التشويق) والترهيب أو الثواب والعقاب . فيقول: (واعلم أنّ لكل مطلوب باعثاً ، والباعث على المطلوب شيئان؛ رغبة ورهبة . فليكن طالب العلم

راغباً راهباً أما الرغبة ففي ثواب الله تعالى لطالبي مرضاته ، وحافظي مفترضاته ؛ وأما الرهبة فمن عقاب الله تعالى لتاركي أوامره ومهملتي زواجره ، فإذا اجتمعت الرغبة والرهبة أدتا إلى كُنه العلم ، وحقيقة الزهد ؛ لأن الرغبة أقوى الباعثين على العلم ، والرهبة أقوى السببين في الزهد). [الماوردي ، ٣٥].

ويبدو من تعبير الماوردي «الرغبة والرهبة» والجمع بينهما أنّ للثواب والعقاب تأثيراً في عملية التعلم ، فالرغبة في الثواب تدفع المتعلم إلى القيام بالسلوك المرغوب فيه ، والمحافظة عليه والاستمرار به ، والرهبة من العقاب تجعل المتعلم يترك السلوك غير المرغوب فيه .

وبناءً على ذلك يبدو للباحث أنّ فحوى كلام الماوردي السابق قد ذكره «ثورندايك» ، من خلال قانون الأثر الذي أكد بمقتضاه أهمية الثواب والعقاب في التعلم ، وأن الفرد يميل إلى تكرار السلوك الذي يتبعه ثواب ، كما ينزع إلى ترك السلوك الذي يصحبه عقاب. [راجع ، د. ت ، ٢٦٩].

ويرى ابن خلدون أن الثواب أكثر فاعلية في التعليم ، ويرفض استخدام العنف والعقاب فيقول: (من كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر ، وحمل على الكذب والخبث). [ابن خلدون ، ١٢٤٣].

وأجرى الباحثون النفسيون تجارب عديدة ليتعرفوا فاعلية الثواب والعقاب ، فتوصلوا إلى أنّ الجمع بينهما في كثير من حالات التعليم أنجع. [راجع ، د. ت ، ٢٤٢].

واعتنى الغزالي بإثارة دافعية المتعلم ، من خلال تبيانه مكانة العلم وفضله ، وسعادة أهله في الدنيا والآخرة ، وثمراته العاجلة والآجلة ، والترهيب من تركه ، أو التقصير في طلبه ، أو عدم العمل به ، مستنداً في ذلك إلى آيات كريمة ، وأحاديث شريفة ، وأقوال لبعض الصحابة والحكماء ، والشعراء. [الغزالي ، ٤٢ - ٥٣].
كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١١] ، وقوله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل منكم». [أخرجه الترمذي ، كتاب العلم ، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة ، وقال عنه: حديث حسن صحيح ، ١/١٥٨].

وذكر الغزالي اختلاف الناس في أيهما أفضل العلم أم المال؟ ثم نقل قول ابن

عباس في ذلك ، فقال : (اعلم أنّ للعلم شرفاً على المال ، من سبعة أوجه :

أحدها : أنّ العلم ميراث الأنبياء ، والمال ميراث الفراعنة والأشقياء .

والثاني : العلم يحرس صاحبه ، وصاحب المال يحرس ماله .

والثالث : أنّ المال يعطيه الله لمن يحبّه ولمن لا يحبّه ، ولا يعطي العلم إلا لمن

يحبّه .

والرابع : لا ينقص العلم بالبذل والإنفاق ، بل يزداد بهما ، والمال ينقص بهما .

والخامس : أنّ صاحب العلم لا يموت ، ولا ينقطع عمله إلى يوم القيامة ، ومعه

علمه أبداً ، وصاحب المال يموت ، وينقطع عمله ، ويبقى ماله لغيره .

والسادس : أنّ صاحب العلم لا يعذب في القبر ولا يبلى ، وأن صاحب المال

يعذب في القبر ويبلى .

والسابع : أنّ صاحب المال يُسأل يوم القيامة عن كل درهم من أين اكتسبه وفيما

أنفقه؟ ويحاسب عليه ، وأن صاحب العلم له بكل مسألة درجة ، وكل حرف

حسنة ، ولكل حرف من حروف القرآن عشر حسنات إن قرأ على غير طهر ، وإن قرأ

على طهر : إن كان في غير الصلاة ؛ فلكل حرف مئة حسنة . وإن قرأ في الصلاة ،

فلكل حرف ألف حسنة . كذا في منهاج الذاكرين) . [الغزالي ، ٦٠ - ٦٢] . وورد

مثل ذلك عند الماوردي وغيره من العلماء . [الماوردي ، ٢٤ - ٣٣] .

وقال الغزالي : (إنّ للعلم ثماراً في الدنيا كثيرة ، ذكر بعضها نقلاً عن الزُّهري ،

بقوله : (الشرف إن كان دينياً ، والغنى إن كان فقيراً ، والعزة إن كان مهيناً ، والقوة إن

كان ضعيفاً ، والجود إن كان بخيلاً ، والقرب إن كان قصياً ، والكبير إن كان

صغيراً) . [الغزالي ، ٦٦] .

وأكد الزُّرنُوجي مضمون ما ذكره الماوردي والغزالي وغيرهما ، بنصوص كثيرة ؛

كقوله : (فينبغي للمتعلم أن يبعث نفسه على التحصيل والجِدِّ ، والمواظبة ، بالتأمل

في فضائل العلم ، فإنّ العلم يبقى بقاء المعلومات والمال يفنى ، كما قال أمير

المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : . [الزُّرنُوجي ، ٥٨ - ٦٠] .

رَضِينَا قِسْمَةَ الْجَبَّارِ فِينَا لِنَاعِلِمٍ وَلِلْأَعْدَاءِ مَالٍ

فَإِنَّ الْمَالَ يَفْنَى عَنْ قَرِيبٍ وَإِنَّ الْعِلْمَ يَبْقَى لَا يَزَالُ

وقال الزُّرنُوجي أيضاً : (وكفى بلذة العلم والفقهِ داعياً وباعثاً للعاقل على تحصيل

العلم). [الرُّزُّوْجِي ، ٦٢]. وقال أيضاً: (والعلم النافع يحصل به حسن الذكر ، ويبقى ذلك بعد وفاته ، فإنه حياة أبدية . . .) وأُشِّدَ: [الرُّزُّوْجِي ، ٥٨ - ٥٩].

الْجَاهِلُونَ فَمَوْتَى قَبْلَ مَوْتِهِمْ وَالْعَالِمُونَ وَإِنْ مَاتُوا فَأَحْيَاءُ

هناك نصوص كثيرة أخرى ، يطول إيرادها ، ومضمونها يتعلق بوسائل خلق الدافعية ، وتحفيز المتعلم على التعلم؛ من خلال بيان فضل العلم وسعادة أهله وثمراته والتشويق في تعلمه ، والترهيب من تركه ، ذكرها العلماء؛ كابن سحنون ، والقابسي ، والنووي ، وابن جماعة ، والمغراوي ، وابن حجر ، والعلموي ، يمكن الإشارة إلى مظانها لمزيد فائدة. [ابن سحنون ، ٣٠٧ - ٣٠٨ ، القابسي ، ٢٤١ - ٢٥٠ ، النووي ، ٣٦ - ٥٤ ، ابن خلدون ، ١٢٣٠ ، ابن جماعة ، ١٧ - ٢٢ ، المغراوي ، ١٠٥ ، الهيثمي ، ١٦ - ٢٩ ، العلموي ، ٣ - ١٥].

٢/٢/١/٢ - دافع التنافس والحاجة إلى التقدير:

تزيد منافسة المتعلم غيره من المتعلمين من مقدار الجهد الذي يبذله في التعلم ، وتوجيه سلوكه إلى تحقيق التفوق ، والرضا الذاتي والاجتماعي. (إنّ الإنسان يزيد من مقدار الجهد المبذول حينما يتنافس مع غيره ، وحينما يعرف أنه سيحصل على التقدير والاحترام الاجتماعي ، أي: ما يتوقعه من الغير نحوه ، ودرجة إظهاره له ، مثل: الاهتمام ، والثقة به ، أو الإهمال ، والبعد والتحفظ نحوه ، فالرغبة في إشباع هذا النوع من التقدير يوجه سلوك الفرد نحو تلبية متطلبات الغير ، فيبذل ما يمكنه من جهد في القيام بما يتوقع أنه عمل له قيمته الاجتماعية الإيجابية). [منصور ، ١٩٩٣ ، ٥٢ - ٥٣].

ويلاحظ أنّ علماء المسلمين اهتموا بالدوافع التنافسية؛ من خلال قيامهم في عملية التعليم بشحذ همة المتعلم لمنافسة الآخرين ، وإرشاد المتعلمين إلى الطرائق التي تنمي روح المنافسة بينهم؛ لذلك وجهوا عنايتهم إلى النشاط الاجتماعي للفرد ، وبينوا أثره في التعلم ، بالإضافة إلى أنهم ربطوا القيمة الاجتماعية الإيجابية للمتعلمين بمدى بلوغهم المستوى المطلوب للتمكن المعرفي ، وشهادة العلماء لهم بذلك ، ومن ثمّ توجيه طلاب العلم لملازمتهم ، وتلقي العلم منهم.

ثمّ إنّ أولئك العلماء بينوا أهمية مشاركة طلاب العلم الناس بالفعاليات

الاجتماعية المختلفة التي تعطيهم الفرصة ليعرفهم الناس ، ومن ثمَّ يشنون عليهم ويقدرونهم ، فيشتهر أمرهم .

ومن الطرائق التي استخدمها أولئك العلماء لبث روح المنافسة بين المتعلمين أيضاً؛ تشجيعهم على المذاكرة مع زملائهم المجتهدين والبعد عن الكسالى ، والمطالبة التي يتم فيها بحث المسائل التي طرحت في الدرس بين المتعلمين ، والمشكلات التي اعترضتهم ، وسبل حلها ، فبالمطالبة يعرف المتعلم مدى قدرته على المنافسة ، وتمكنه المعرفي بالنسبة إلى زملائه ، والمناظرة التي يتمكن المتعلم من خلالها بإظهار نفسه وشهرته ، ومعرفة الناس له ، والدخول في ميدان التعليم لمنافسة العلماء . [العلي ، ٢٠٠٨ ، ٦٧] .

وقد وردت نصوص كثيرة عن أولئك العلماء ، تؤكد ما سبق ، وتنمي دافع التنافس في المتعلم ، وتثير اهتمامه لبلوغ مستوى التحصيل المعرفي الجيد ، والتقدير الاجتماعي المطلوب . قال الغزالي : (ولا بد من المذاكرة ، والمناظرة ، والمطالبة ، فإنَّ المناظرة والمذاكرة مشاورة ، والمشاورة إنما تكون لاستخراج الصواب (. . .) وفائدة المطالبة والمناظرة أقوى من فائدة التكرار؛ لأنَّ فيها تكراراً وزيادة . فقد قيل : مطالبة ساعة خير من تكرار شهر) . [الزُّنُوجي ، ٧٠ - ٧١] . وقد أعطى الزُّنُوجي بعداً أعمق للتنافس والتقدير الاجتماعي من خلال الاهتمام بتوفير الجو النفسي والاجتماعي للمتعلم ، وتأثير ذلك في عملية التعلم ، حيث نصح المتعلم بعدم المذاكرة والمنافسة إلا مع شريك يتمتع بصفات خُلقية وعلمية طيبة؛ لذلك حذر الزُّنُوجي المتعلم من مصاحبة الكسلان ، والمذاكرة معه ، وأمره بمصاحبة المُجِدِّ وصاحب الطبع السليم . [العلي ، ٢٠٠٨ - ٦٨] بقوله : (إياك والمذاكرة مع متعنت غير مستقيم الطبع ، فإنَّ الطبيعة متسربة ، والأخلاق متعدية ، والمجاورة مؤثرة) . [الزُّنُوجي ، ٧١] . وقال الزُّنُوجي أيضاً : (أما اختيار الشريك فينبغي أن يختار المُجِدَّ الوَرع ، وصاحب الطبع السليم ، ويفرَّ من الكسلان ، والمفسد) . وأنشُدتْ : [الزُّنُوجي ، ٣٧] .

لا تَصْحَبِ الْكَسْلَانَ فِي حَالَتِهِ كَمَّ صَالِحٍ بِفَسَادٍ آخَرَ يَفْسُدُ
عَدْوَى الْبَلِيدِ إِلَى الْجَلِيدِ سَرِيعَةً كَالْجَمْرِ يُوضَعُ فِي الرَّمَادِ فَيَخْمَدُ

وقال النووي - ناقلاً قول الشافعي - : (ما ناظرت أحداً قط على الغلبة ، ووددت إذا ناظرت أحداً أن يظهر الحق على يديه) . [النووي ، ٧٦] . واستعمل النووي

التعزيز المعنوي لإثارة المنافسة بين المتعلمين ، من خلال إكرام المعلم للمتعلم الحافظ المجتهد المجد ، والثناء عليه ، وإشاعة ذلك بين المتعلمين ، بقوله: (وينبغي أن يحرّضهم على الاشتغال في كل وقت ، ويطالبهم في أوقات بإعادة محفوظاتهم (...)) ، ويسألهم عما ذكره لهم من المهمات ، فمن وجده حافظاً مراعيّاً له أكرمه ، وأثنى عليه ، وأشاع ذلك). [النووي ، ٩٣].

وذكر مثل هذا العلمي بقوله: (أن يحرّضهم على الاشتغال في كل وقت ، ويطالبهم بإعادة محفوظاتهم ، فمن وجده حافظاً مراعيّاً له أكرمه ، وأثنى عليه ، وأشاع ذلك (...)) . وإذا فهم الشيخ فائدة من البعض في البحث وإن كانت من صغير فينصفه بها ، ويشكره عليها ، فإن ذلك من بركة العلم). [العلموي ، ٥١].

وقال ابن جماعة - ناقلاً قول الرُّبيع المرادي صاحب الشافعي -: (كان الشافعي إذا ناظره إنسان في مسألة فعدا إلى غيرها يقول: نفرغ من هذه المسألة ، ثم نصير إلى ما تريد (...)) . ويذكر الحاضرين بما جاء من كراهية الممارسة ، لا سيما بعد ظهور الحق (...)) . وإن مقصود الاجتماع ظهور الحق ، وصفاء القلوب ، وطلب الفائدة ، وأنه لا يليق بأهل العلم تعاطي المنافسة والشحناء؛ لأنها سبب العداوة والبغضاء). [ابن جماعة ، ٤٧].

ويلاحظ أنّ ابن جماعة يشير إلى المنافسة المذمومة التي تورث العداوة بين المتعلمين . وذكر ابن جماعة أيضاً التعزيز المعنوي الذي من شأنه أن يدفع المتعلم إلى منافسة غيره للوصول إلى هدفه الدنيوي ، والأخروي ، بقوله: (لكن الشيخ يحرّض المبتدئ على حسن النية بتدريج قولاً وفعلاً ، ويعلمه بعد أنسه به أنه ببركة حسن النية ينال الرتبة العلية من العلم والعمل ، وفيض اللطائف ، وأنواع الحكم ، وتنوير القلب ، وانسراح الصدر ، وتوفيق العزم ، وإصابة الحق ، وحسن الحال ، والتسديد في المقال ، وعلو الدرجات يوم القيامة). [ابن جماعة ، ٥٤ - ٥٥].

وردد فحوى هذا النص عن العلموي . [العلموي ، ٤٥]. وذكر ابن جماعة أهمية التعزيز المعنوي ، وأثره في المنافسة بين المتعلمين ، بقوله: (فمن رآه مصيباً في الجواب ولم يخف عليه شدة الإعجاب شكره وأثنى عليه بين أصحابه ليعتد وإياهم على الاجتهاد في طلب الازدياد (...)) . وحرّضه على علو الهمة ونيل المنزلة في طلب العلم ، لا سيما إن كان ممن يزيده التعنيف نشاطاً ، والشكر انبساطاً). [ابن جماعة ، ٦٠].

وقال العلموي في أثناء إيراده المناظرة ، وشروطها ، وآدابها: (أن تكون المناظرة في الخلوة أحب إليه منها في المحفل والصدور (. . .) وفي حضور الخلق ما يحرك دواعي الرياء ، والحرص على الإفحام ولو بالباطل ، وأنت تعلم كسلهم عن الجواب عن المسألة في الخلوة ، وتنافسهم في المسألة في المحفل). [العلموي ، ١١٦].

٣/٢/١/٢ - دافع الإنجاز والتحصيل:

تستثير المتعلم دوافع ذاتية وخارجية ، تدفعه إلى تحسين أدائه ، والتفوق على أقرانه ، وتحصيل مستوى أعلى من الدرجات التي يرضى بها المتعلم ، ويسعى جاهداً من أجل تحقيقها. والإنجاز هو: (الأداء في مستوى محدد للامتياز والتفوق ، أو هو ببساطة الرغبة في النجاح وتجنب الفضل (. . .) إنه السعي والاجتهاد من أجل تحقيق مستوى من الدرجات المتقدمة في سلم النجاح الذي تدعمه اتجاهات المجتمع وقيمه (. . .) ، وهو يشير إلى حاجة يشعر بها الفرد من داخله ، وتستحثه للوصول إلى مستوى يلبي هذه الحاجة (. . .) تؤكد بعض الدراسات التي أجريت أن الأفراد من ذوي الإنجاز العالي يتعلمون ويؤدون الاستجابات أسرع وأدق من ذوي الإنجاز المنخفض. وتؤكد نتائج بحوث أخرى أن ذوي الإنجاز العالي يصعب استثارة دوافعهم بالجوائز والمكافآت الخارجية ، وهم يؤدون أفضل حين يحصلون على الرضا نتيجة إنجاز جيد). [منصور ، ١٩٩٣ ، ٤٨ - ٤٩].

لقد تحدث علماء المسلمين عن الدوافع الذاتية والخارجية التي تدفع المتعلمين إلى التفوق وتحصيل المستوى المعرفي الذي يطلبونه ، ويرتضونه. وذكروا أهم الوسائل التي تساعد المتعلم على الوصول إلى تحصيل عال ، وإنجاز رفيع ، وتحقيق رضا ذاتي ، من خلال همة الفرد وطموحه ، واجتهاده ومواظبته على ذلك. وقرنوا بين الهمة والجد ، وبيّنوا أثرهما في الحصيل العلمي ، وجعلوا العلاقة بينهما تلازمية ، فلا يغني أحدهما عن الآخر ، فلو كانت همة المتعلم عالية ، وجدّه ضعيفاً ، أو كان جدّه عالياً ، وهيمته ضعيفة لم يصل إلى التحصيل المعرفي المطلوب.

فإذا ما أراد المتعلم أن يحصل على مستوى تحصيل عال فينبغي أن تكون همته عالية ، وجدّه قوياً بالإضافة إلى المواظبة على ذلك؛ لأن الانقطاع عن التحصيل غالباً ما يؤثر سلباً في همة المتعلم واجتهاده. وتحدثوا أيضاً عن بعض الشروط

المتعلقة بالتحصيل؛ كالصبر على عملية التعلم ، وقد وردت نصوص كثيرة عن أولئك العلماء توضح ما سبق .

قال الغزالي: (ويجب على المتعلم الجدّ والمواظبة ، والملازمة لطلب العلم ، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وقال الغزالي أيضاً: (ويجب على المتعلم الهمة العالية في العلم وغيره ، فإنّ المرء يطير بهمته كالطير يطير بجناحيه ، وقيل [المتنبي]:

على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ وتأتي على قدرِ الكرامِ المكارمُ
أما إذا كانت له همة ، ولم يكن له جدّ ، أو كان له جدّ ولم تكن له همة عالية؛ فلا يحصل له من العلم إلا القليل). [الغزالي ، ١١٠].

وقال الرُّزُّوْجِي: (ولا بد لطالب العلم من الهمة العالية في العلم ، فإنّ المرء يطير بهمته ، كالطير يطير بجناحيه (. . .) والرأس في تحصيل الأشياء: الجدّ والهمة العالية (. . .) واقترون بذلك الجدّ والمواظبة (. . .) فأما إذا كانت له همة عالية ، ولم يكن له جدّ ، أو كان له جدّ ولم يكن له همة عالية ، فلا يحصل له علم إلا القليل). [الرُّزُّوْجِي ، ٥٥]. وقال أيضاً: (فينبغي للمتعلّم أن يبعث نفسه على التحصيل والجدّ والمواظبة بالتأمل في فضائل العلم). [الرُّزُّوْجِي ، ٥٨]. وقال أيضاً: (ثم لا بد من الجدّ والمواظبة لطالب العلم ، وإليه الإشارة في القرآن بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. [الرُّزُّوْجِي ، ٥٠].

وقال ابن جماعة: (دوام الحرص على الازدياد من الجد والاجتهاد والمواظبة على وظائف الأوراد؛ من العبادة والأشغال ، قراءة وإقراء ومطالعة وفكراً وتعليقاً وحفظاً وتصنيفاً. ولا يضيع شيئاً من أوقات عمره في غير ما هو بصدده من العلم والعمل). [ابن جماعة ، ٣٥]. وقال أيضاً: (فمن رآه مصيباً في الجواب ، ولم يخف عليه شدة الإعجاب شكره وأثنى عليه بين أصحابه ليعتبه وإياهم على الاجتهاد في طلب الازدياد). [ابن جماعة ، ٦٠].

وقال أيضاً: (فإن كان بعضهم أكثر تحصيلاً ، وأشدّ اجتهاداً ، أو أحسن أدباً (. . .) فأظهر إكرامه وتفضيله ، وبيّن أنّ زيادة إكرامه لتلك الأسباب فلا بأس بذلك؛ لأنّه ينشط ويبعث على الانصاف بتلك الصفات). [ابن جماعة ، ٦٤].

وقال النووي عند بيان آداب المتعلم: (وينبغي أن يكون حريصاً على التعلم ، مواظباً عليه في جميع أوقاته ليلاً ونهاراً ، ولا يذهب من أوقاته شيئاً في غير العلم ، إلا بقدر الضرورة (. . .) ، وأن يكون همته عالية ، فلا يرضى باليسير مع إمكان الكثير ، وأن لا يسوّف في اشتغاله ، ولا يؤخر تحصيل فائدة وإن قلت إذا تمكن منها ، وإن أمن حصولها بعد ساعة ؛ لأن للتأخير آفات). [النووي ، ١٠٧-١٠٩].

وقال العلموي ناصحاً العالم والمتعلم: (فمنها: أن لا يزال كلّ منهما مجتهداً في الاشتغال؛ قراءة ومطالعة وتعليقاً ومباحثة ومذاكرة وفكراً وحفظاً وإقراءً وتصنيفاً إن تأهل لهما ، ووظائف الأوراد في كل الأحوال ، ومنها: أن لا يخل بوظيفته من حضور درس ، ومذاكرة وقراءة ونحوها ، ولو لعروض مرض خفيف ، أو ألم لطيف ، وليستشف بالعلم ، وليشتغل بقدر الإمكان كما قيل:

إذا مرضنا تداوننا بذكركم وتترك الذكر أحياناً فنتكسر

هذا ، والحكايات عن السلف في ارتكابهم الأهوال في طلب العلم مشهورة ، ومدوّنة في كتب التواريخ والسير ومسطورة). [العلموي ، ٤١]. وقال العلموي أيضاً: (ومنها: أن تكون همته عالية ، فلا يرضى باليسير مع إمكان العسير). [العلموي ، ٦٢].

ثم إنّ أولئك العلماء استعملوا التعزيز المعنوي من أجل أن يغرسوا في المتعلم جذوة الهمة ، والإقدام والجِدِّ ، ومن ثمّ تنمية المواظبة على الإنجاز والتحصيل ؛ من خلال ترغيب المتعلم في العلم وطلبه ، وبيان فضل أهله ، وسعادتهم به في الدارين ، وذكر نماذج لأهل العلم والعمل من السلف الصالح الذي سجلوا نجاحات عزّ نظيرها بالاجتهاد في طلب العلم والعمل بمضامينه ، مستندين في بيان ذلك إلى آيات قرآنية كريمة ، وأحاديث نبوية شريفة ، وأخبار وأشعار عن السلف لطيفة .

ونصوص العلماء في ذلك كثيرة ، يصعب إيرادها ، ولكن يمكن بيان مظان وجودها في كتبهم لمن أراد مزيد فائدة. [ابن سحنون ، ٣٠٧-٣٠٨ ، القاسبي ، ٢٤١-٢٥٣ ، الماوردي ، ٢٤-٣٦ ، الغزالي ، ٤٢-٧٦ ، الزرنوجي ، ١٩-٢٥ ، النووي ، ٣٦-٦٣ ، ابن جماعة ، ٥٥-٧٤ ، المغراوي ، ٦١-١٠٥ ، الهيتمي ، ١٦-٣٥ ، العلموي ، ٤٦]. ويمكن ذكر بعض من تلك الأحاديث والأخبار والآثار باختصار .

قال ابن جماعة: (قال سهل [بن عبد الله التستري]: من أراد النظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء ، فاعرفوا لهم ذلك . وقال الشافعي رضي الله عنه : إن لم يكن الفقهاء العاملين أولياء الله فليس لله ولي . وعن ابن عمر : مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة . وعن سفيان الثوري والشافعي رضي الله عنهما : ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم . وعن أبي ذر وأبي هريرة رضي الله عنهما قالوا : باب من العلم نتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوعاً) . [ابن جماعة ، ٢٢ - ٢٣] .

وقال الهيثمي راوياً حديث رسول الله ﷺ : «يا معاذ: إن أردت عيش السعداء ، وميتة الشهداء ، والنجاة يوم الحشر ، والأمن يوم الخوف ، والنور يوم الظلمات ، والظل يوم الحرور ، والرّيّ يوم العطش ، والوزن يوم الخفة ، والهدى يوم الضلال ، فادرس القرآن ، فإنه ذكر الرحمن ، وحرز من الشيطان ، ورجحان في الميزان» . [الهيثمي ، ٣١] . [والحديث أخرجه الهندي في كنز العمال ١/ ٨٤٨] .

ويلاحظ مما ذكر العلماء ولا سيما الغزالي والرّزّنجي أنّهما الذين ربطوا بين الهمة التي هي أمر داخلي انفعالي ، والجِدّ الذي هو العمل المتمثل في السلوك ، وهو أمر خارجي ، وجعلوا العلاقة بينهما (الهمة والسلوك) تلازمية تبادلية ، بحيث يلزم من وجود الهمة العالية الجِدّ ، ويلزم من الجِدّ والمواظبة الهمة . فالهمة باعث على الحركة ، بل هي في ذاتها حركة داخلية ، يمكن أن تؤدي إلى حركة خارجية ، أو سلوك . بل (إنه [الرّزّنجي] يخطو خطوة أبعد تتضمن نفاذ بصيرة نفسية ، تلفت نظر النفساني المعاصر ، عندما يبيّن أمرين : الأول أن المواظبة ، أو العمل ، أو السلوك يؤدي إلى تحريك الهمة ، وأن العلاقة بين الهمة والعمل ، أو الانفعال والسلوك علاقة تبادلية ، بحيث تؤدي الهمة إلى جِدّ ومواظبة ، بينما يؤدي الجِدّ والمواظبة إلى الهمة . أما الأمر الثاني الذي يعكس عمق بصيرته في الظواهر النفسية ، فهو أنه نصح المتعلم بترك الكسل ، ودعاه إلى أن يفعل ذلك عن طريق نشاط عقلي معرفي يقوم به قصداً ، وذلك بأن يتأمل مناقب العلم وفضائله ، ويرى أنّ هذا التأمل يعث همة المتعلم إلى التحصيل ، أي : أنه ربط هنا بين الاستشارة العقلية المعرفية ، والاستشارة الانفعالية الدافعية ، وهو ربط سديد ، تؤكد بحوث علم النفس الحديثة التي تدور حول ما في العمليات العقلية المعرفية من عناصر دافعية . فالرّزّنجي يربط بين الهمة والسلوك ربطاً تبادلياً من جهة ، كم يربط بين النشاط العقلي المعرفي والحياة الانفعالية الدافعية من جهة أخرى) . [عثمان ، ١٩٨٩ ، ١٠٥] .

ويلاحظ أيضاً أنّ الدافعية عند أولئك العلماء بأنواعها المختلفة إنما هي دافعية ذاتية تنبعث من داخل المتعلم ، وخارجية مرتبطة بالمكافآت أو الجزاء الخارجي . لكنهم ركزوا على المكافآت الداخلية التي عبّروا عنها بمفهوم (اللذة) تارة ، وبالإرتياح أو الرضا) تارة أخرى . يندرج هذا المفهوم تحت الهدف الأسمى لعملية التعلم . قال الماوردي : (إنّ العلم عوض عن كل لذة ، ومغنٍ عن كل شهوة ، ومن كان صادق النية فيه لم يكن له همة فيما يجد بدأ منه ؛ لذلك قال بعض البلغاء : من تفرد بالعلم لم توحشه خلوة ، ومن تسلى بالكتب لم تفته سلوى) . [الماوردي ، ٦٠] .

وقال الرُّزُّوجي : (ولا بد من تحمل النَّصَبِ والمشقة في سفر التعلم ، فمن صبر على ذلك وجدته لذة تفوق سائر لذات الدنيا ، ولهذا كان محمد بن الحسن إذا سهر الليلي ، وانحلت له المشكلات يقول : أين أبناء الملوك من هذه اللذات؟ وهكذا ينبغي للفقهاء أن يشتغل به في جميع أوقاته ، فحينئذ يجد لذة عظيمة في ذلك) . [الرُّزُّوجي ، ٨٦] . وقال أيضاً : (وكفى بلذة العلم والفقهاء داعياً وباعثاً للعاقل على تحصيل العلم) . [الرُّزُّوجي ، ٦٢] . وقال الرُّزُّوجي أيضاً : (وينبغي لطالب العلم أن يعدّ ويقدر لنفسه تقديراً في التكرار ، فإنه لا يستقر قلبه حتى يبلغ ذلك المبلغ) . [الرُّزُّوجي ، ٨١ - ٨٢] .

إنّ قول الرُّزُّوجي السابق يبرز أهمية ذاتية التقويم ، وارتباطها بذاتية الدافعية التي تتجلى في تنبيهه المتعلم في أن يعدّ ويكرر لنفسه من الاهتمام بالدرس وتحصيله وتكراره كي يبلغ المستوى المعرفي ، أو مستوى التمكن الذي يرجوه المتعلم ، ويرضى عنه ، ويرتاح له . فإن وصل إلى ذلك فحينئذ يستقر قلبه ، وتطمئن نفسه . (وكم يشبه هذا من وجه جديد ، ما نؤكد من ضرورة مراعاة الفروق بين الأفراد ، من حيث قدرتهم وسرعتهم في بلوغ مستويات التمكن والهيمنة في التعلم ، ولا سبيل إليه إلا بأن يكون للمتعلم دورٌ في أن يعدّ ويقدر لنفسه مستوى لا يستقر قلبه حتى يبلغه (. . .) وأن يكون له دورٌ في تقويم تعلمه) . [عثمان ، ١٩٨٩ ، ١١٤ - ١١٥] .

إنّ في قول الرُّزُّوجي : (أن يعدّ ، ويقدر لنفسه تقديراً في التكرار ، فإنه لا يستقر قلبه حتى يبلغ ذلك المبلغ) ، إشارة واضحة إلى مستوى الطموح الذي يقصد منه : (الهدف الذي يرسمه الفرد ، ويسعى إلى الوصول إليه ، أو هو المستوى الذي يتوقع

الفرد أن يصل إليه بناءً على تقديره الذاتي لقدراته واستعداداته. وهناك علاقة بين مستوى الطموح والإنجاز المدرسي ، فكلما كان مستوى الطموح أعلى كما هو الحال عند الطلاب المجدين انعكس ذلك إيجابياً على العمل المدرسي (. . .) وبالعكس فإنّ مستوى الطموح المنخفض يؤدي إلى فاعلية من جانب المتعلم أقل ما يقال عنها: إنها دون مستوى الكفايات والقابليات التي يمتلكها ويوظفها لأغراض التعلم). [منصور ، ١٩٩٣ ، ١٥٣].

ويبدو أنّ ما نص عليه أولئك العلماء واهتموا به من تأثير الدوافع في التعلم ، وتركيزهم على المكافآت الداخلية التي عبروا عنها بلذّة العلم ، أو ارتياح المتعلم ، ورضاه عما حققه من مستوى معرفي ، هو ما أكدته الدراسات التربوية الحديثة في مجال علم النفس: (وتؤكد نتائج بحوث أخرى أنّ ذوي الإنجاز العالي يصعب استشارة دوافعهم بالجوائز والمكافآت الخارجية ، وهم يؤدون أفضل حين يحصلون على الرضا نتيجة إنجاز جيد). [منصور ، ١٩٩٣ ، ٤٩].

ويبدو للباحث أنّ ما قدمه أولئك العلماء في هذا المجال أيضاً يتوافق مع ما ذكره (هيدر) عن الدافعية في الأداء ، فقد ميز بين نوعين من المتعلمين: المتعلم المدفوع ذاتياً ، والمتعلم المدفوع بدوافع خارجية ، وأكد أنّ الأنشطة المحكومة بدوافع ذاتية أو داخلية تعزز نفسه بنفسها ، وتؤثر في تعلم الفرد أكثر من الدوافع الخارجية؛ إذ إن من خصائص الدافع الداخلي تركيز المتعلم على التعلم المتعمق ، وعلى التعلم الفردي والذاتي ، وعلى التفوق في التحصيل. [زايد ، ٢٠٠٣ ، ٧٩ - ٨٠].

ويلاحظ أنّ أولئك العلماء يتفوقون أيضاً مع أصحاب نظرية التقرير الذاتي التي هي إحدى نظريات الدافعية الحديثة ، ويشير أصحاب هذه النظرية إلى: (أنّ الناس أكثر حباً لأن يدفعوا داخلياً للاشتراك في نشاط عندما يكون مصدر الضبط لديهم داخلياً ، منه عندما يكون مصدر الضبط لديهم خارجياً). [زايد ، ٢٠٠٣ ، ٧٦ - ٧٧].

ويبدو للباحث من خلال دراسة الدوافع عند علماء المسلمين أيضاً ، وربطهم هذه الدوافع بالسلوك ، وتوجيهه ، وتصحيحه من خلال القدرة في التحكم بالدوافع ، أنّ في ذلك سبقاً في مجال علم النفس ، حيث أكد كثير من علماء النفس الغربيين أهمية دراسة سلوك الإنسان ، وعلاقته بالتربية ، ودوره في توجيهه توجيهاً صحيحاً من خلال التحكم بالدوافع. فقد أشارت «أنيثا وودلف» (١٩٨٠) أنّ عملية

التعليم والتعلم تقف على حسن استخدام علم النفس ، وما يتضمنه في توجيه المتعلم نحو التعلم. [أبو جادو ، ١٩٨٨ ، ٧٣].

لقد وجه علماء المسلمين المتعلم نحو غايات التعلم المادية والمعنوية مرتبة وفق سلم هرمي؛ أعلاه مرضاة الله عزَّ وجل ، ثم تأتي بعده الغايات والأهداف الأخرى. قال الغزالي: (يجب أن ينوي المتعلم بتحصيل العلم رضاء الله تعالى ، والدار الآخرة ، وإزالة الجهل عن نفسه ، وعن سائر الجهال ، وإحياء الدين ، وإبقاء الإسلام ، فإن بقاء الإسلام بالعلم ، وينوي به الشكر على نعمة العقل ، وصحة البدن). [الغزالي ، ١٠١]. وقال الزرنوجي: (وينبغي أن ينوي المتعلم بطلب العلم رضاء الله تعالى ، والدار الآخرة ، وإزالة الجهل عن نفسه ، وعن سائر الجهال ، وإحياء الدين ، وإبقاء الإسلام ، فإن بقاء الإسلام بالعلم (...)) ولا ينوي به إقبال الناس عليه ، ولا استجلاب حطام الدنيا). [الزرنوجي ، ٢٧]. وقال ابن جماعة: (أن يقصد بتعليمهم وتهذيبهم وجه الله تعالى ، ونشر العلم ، وإحياء الشرع ، ودوام ظهور الحق وخمول الباطل ، (...)) واغتنام ثوابهم (...)) وبركة دعائهم له ، وترحمهم عليه). [ابن جماعة ، ٥٣ - ٥٤]. والنصوص في ذلك كثيرة.

ويبدو للباحث من النصوص السابقة أن علماء المسلمين جعلوا الحاجة الكبرى والغاية الأساس من التعلم التي تعتلي قمة الهرم هي مرضاة الله تعالى ، وهذا يعني أن المتعلم سيهتم بها ، ويسعى باستمرار لإشباعها بالعلم حتى آخر لحظة من حياته. ويبدو للباحث في هذه الفكرة أيضاً أن هناك اتفاقاً واختلافاً بين أولئك العلماء وبين ماسلو «maslow» - الذي يعدّ أحد أكبر المهتمين بنظريات دوافع السلوك ، بل تنسب إليه هذه النظريات من حيث التأسيس -.

أما وجه الاتفاق فيتجلى في ترتيب الحاجات الإنسانية حسب أهميتها عند «ماسلو» وعلماء المسلمين. قال «ماسلو»: (إنَّ حاجات الإنسان يمكن أن ترتب وفق سلم هرمي حسب أهميتها ، بدءاً من الحاجات الدنيا وحتى أعلى قمة هرم الحاجات ، وإنَّ الحاجة الأكثر إلحاحاً سوف تطغى على اهتمام الفرد ثم ينتقل إلى الأخرى بعد قضائها). [maslow ، ٢٦ ، ١٩٥٤].

وأما وجه الاختلاف بين ماسلو وعلماء المسلمين ، فيظهر من خلال رؤية ماسلو أنّ المتعلم تتناقص عنده حدة الدافعية كلما أُشبعت واحدة من حاجاته. بينما يرى أولئك العلماء أنّ دافعية المتعلم لا تتناقص بمجرد وصوله إلى قمة الهرم وإشباع

حاجته الكبرى ، بل يبقى المتعلم مستمراً في إشباع هذه الحاجة . فمرضاة الله تعالى تمثل الحاجة الكبرى في قمة الهرم عند المتعلم المسلم الذي يستمر في طلبها بالعلم حتى آخر لحظة من حياته ، وكلما أرضى المتعلم ربّه ازداد علمه ، فالعلاقة بين الغاية الكبرى للمتعلم (رضاء الله تعالى) ووسيلة الوصول إليها (العلم) طردية؛ فكلما أرضى العبد ربّه زاده علماً ، وكلما ازداد علماً ازداد قرباً من الله تعالى .

قال الغزالي والزرنوجي ، وغيرهما مؤكدين هذا المعنى: (قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: إنما أدركت العلم بالحمد والشكر ، فكلما فهمت شيئاً من العلوم ، ووقفت على فقه وحكمة؛ قلت: الحمد لله؛ فازداد علمي). [الزرنوجي ، ٧٧ ، وينظر: الغزالي ، ١١١].

٢/٢ - مبدأ الاستعداد للتعلم:

١/٢/٢ - أهمية الاستعداد وتعريفه:

إنّ الاستعداد للتعلم من العوامل المهمة التي تؤثر فيه ، وهو يحتاج إلى توافر قابليات وقدرات وخبرات في الفرد تمكنه من اكتساب المعلومات والمهارات ، وتحقيق إنجازات في الحال والمآل . والاستعداد هو: (تهيؤ أو طاقة كامنة ، أو احتمالية تمكن الفرد إذا ما تيسر تنبيهها أو إطلاقها من اكتساب المعلومات والمهارات سواء أكانت عامة أم خاصة). [منصور ، ١٩٩٣ ، ٢٢].

ولا يكفي مجرد التهيؤ والرغبة والإقبال على التعلم لخلق الاستعداد فحسب ، بل ينبغي توافر شروط أخرى؛ كقدرات المتعلم وخبراته السابقة ، للتعبير عن الاستعداد ، وترجمته إلى سلوك وإنجازات قابلة للملاحظة والقياس . [منصور ، ١٩٩٣ ، ٢٦].

وإذا ما أراد المتعلم تعلّم شيء مرغوب فيه ، فينبغي عليه أن يتهيأ له ويستعد للتعلم . فكلما كان الشيء المراد تعلمه مشوقاً ومحتاجاً إليه ، ولدى المتعلم قابلية وقدرة وطاقة ، ازداد نمو الاستعداد لدى المتعلم . (إذا أريد للجهد أن ينجح فلا يكفي أن يكون الإنسان عازماً على التعلم متهيئاً له ، بل لا بد له من أن يكون مستعداً للتعلم . والاستعداد لتعلم أمر بعينه يقتضي بعض القابليات والكفاءات (...). وكلما زاد مقدار القابليات والكفاءات زاد الاستعداد للتعلم). [عقل ، ١٩٩٠ ، ١٨٣].

ويؤكد علماء النفس التربوي أن (النضج والخبرة السابقة وطبيعة العمل المراد تعلمه عوامل حاسمة في الاستعداد للتعلم). [عافل ، ١٩٨١ ، ١٨٨]. وأن من أهم واجبات المعلم أن يغرس في طلابه الاستعداد للتعلم والعزم عليه. [عافل ، ١٩٩٠ ، ١٨٨].

٢/٢/٢ - ماهية الاستعداد وأقسامه عند علماء المسلمين :

تحدث مسكويه عن الاستعداد وماهيته وأقسامه وأثر التعليم والتدريب في تنميته ، من خلال حديثه عن الخلق ، والأخلاق التي رأى أنّ الإنسان مطبوع على قبول الخلق ومستعد له ، وقسمه إلى قسمين ؛ خلق طبيعي ، وخلق مكتسب. وينمو هذا الاستعداد بالعادة والتدريب ، ثم يستمر عليه حتى يصير ملكه . يقول مسكويه : (الخلق حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية . وهذه الحال تنقسم إلى قسمين : منها ما يكون طبيعياً من أصل المزاج ؛ كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب ، ويهيج من أقل سبب (. . .) ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدريب ، وربما كان مبدؤه الفكر ، ثم يستمر عليه أولاً فأولاً حتى يصير ملكة وخلقاً (. . .) وذلك أنا مطبوعون على قبول الخلق ، بل نتقل بالتأديب والمواعظ إما سريعاً أو بطيئاً (. . .) فأما مراتب الناس في قبول هذه الآداب التي سميها خلقاً والمسارة إلى تعلمها ، والحرص عليها فإنها كثيرة ، وهي تشاهد وتعاين فيهم ، وخاصة في الأطفال ، فإنّ أخلاقهم تظهر فيهم منذ بدء نشأتهم ، ولا يسترونها بروية ولا فكر (. . .) وأنت تتأمل من أخلاق الصبيان ، واستعدادهم لقبول الأدب أو نفورهم عنه). [مسكويه ، ٥١ - ٥٤].

ويبين أقسام الاستعداد ، وأنه قد يكون فطرياً في النفس الإنسانية ، فتكون مستعدة بذاتها لتقبل التعلم والأدب ، وقد يكون مكتسباً يأخذه المتعلم من المعلم أو البيئة المحيطة به ، بقوله : (وهذه النفس مستعدة للتأديب صالحة للعناية لا يجب أن تُهمل ولا تترك ، ومخالطة الأضداد الذين يفسدون بالمقارنة والمداخلة ، وإن كانت بهذه الحال من الاستعداد لقبول الفضيلة ، فإنّ نفس الصبي ساذجة لم تنتقش بعد بصورة ، ولا لها رأي وعزيمة تميلها من شيء إلى شيء ، فإذا نقشت بصورة وقبلتها نشأ عليها واعتادها). [مسكويه ، ٦٩].

وذكر أيضاً أنّ الإنسان لديه استعدادات كثيرة ، يمكن إصلاحها حسب أحوالها بقوله : (فأما الإنسان من بين هذه الجواهر فهو مستعد بضروب من الاستعدادات

لضروب من المقامات ، وليس ينبغي أن يكون الطمع في استصلاحه على مرتبة واحدة). [مسكويه ، ٥٦].

ويرى مسكويه أيضاً أنّ الاستعداد حركة داخلية في المتعلم (الإنسان) ، يمكن أن تدفعه إلى سلوك ، قد يكون خيراً أو شراً. (فالخيرات هي الأمور التي تحصل للإنسان بإرادته وسعيه في الأمور التي لها أوجد الإنسان ، ومن أجلها خلق ، والشروع هي الأمور التي تعوقه عن هذه الخيرات بإرادته وسعيه أو كسله وانصرافه. والخيرات قد قسمها الأولون إلى أقسام كثيرة ، وذلك أنّ منها: ما هي شريفة ، ومنها: ما هي ممدوحة ، ومنها: ما هي نافعة ، ومنها: ما هي بالقوة كذلك؛ ونعني بالقوة: التهيؤ والاستعداد). [مسكويه ، ٣٥].

وتعرض مسكويه أيضاً إلى العلاقة بين الاستعداد والدافعية ، وربطهما بطموح الفرد ، حينما تحدث عن صناعة الأخلاق بقوله: (فأما هذه الصناعة هي أفضل الصناعات كلها أعني: صناعة الأخلاق التي تعنى بتجويد أفعال الإنسان ، (. . .) فالصناعة والهمة التي تصرف إلى أشرفها أشرف من الصناعة والهمة التي تصرف في الأدون منها). [مسكويه ، ٥٥ ، ٥٦].

وأشار الغزالي إلى الاستعداد الفطري ، ودور البيئة الاجتماعية في تغييره ، ولا سيما الآباء ، بقوله: (يجب على الآباء تأديب الأبناء ، وتربيتهم ، وإرسالهم إلى المعلم (. . .) ، ولم يجلسه بين يدي المعلم (. . .) ذهب استعداده ، وقابليته للعلم (. . .) فإنّ الخلقة على الإسلام والقابلية ، والاستعداد للعلم ، وسائر السعادات الدينية والدينيوية ، وزوالها عن الأبناء؛ إنما هو بسبب الأبوين؛ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «كل مولود يولد على الفطرة (الإسلام) ، إلا أنّ أبويه يهودانه أو ينصرانه ، أو يمجسانه». [أخرجه البخاري في كتاب الأحكام: ٢٦١١/٦] ، وكذلك كلّ مولود يولد على القابلية والاستعداد للعلم). [الغزالي ، ٩١].

وتحدث ابن خلدون عن الاستعداد وأثره في التعلم والفهم والتحصيل ، وذكر إمكان حصول الاستعداد في المتعلم بشكل تدريجي ، وبين أنّ تهيئة المتعلم لقبول العلم يؤثر إيجابياً في تعلمه؛ لذلك طلب من المعلم أن لا يلقي المعلومات على المتعلم إن لم يكن مستعداً لقبولها ، بقوله: (وقد شاهدنا كثيراً من المتعلمين (. . .) يجهلون طرق التعليم (. . .) ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في

مبادئها وقبل أن يستعد لفهمها ، فإنّ قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجياً ، ويكون المتعلم أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة إلا في الأقل (. . .) ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلاً قليلاً بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والاستعداد ، ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن ، وإذا أُلقيت عليه الغايات في البدايات وهو حينئذٍ عاجز عن الفهم والوعي ، وبعيد عن الاستعداد له كلّ ذهنه عنها ، وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه ، فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه ، وإنما أتى ذلك من سوء التعليم). [ابن خلدون ، ط الكتاب العربي ، ٥٣٣ - ٥٣٤].

وقسم العَلْمُوي الاستعداد إلى استعداد في المظهر مرتبط بالمعلم ، يجب أن يلازمه ليستطيع تنفيذ المهمات التعليمية المأمولة منه على الوجه الأحسن بقوله : (فمنها إذا عزم على التدريس أن يتطهر من الحدث والخبث ، فلا يلقي الدرس إلا على الطهارة). [العلموي ، ٥٣]. واستعداد في الجوهر فيقول : (ومنها أن لا يُدْرَس وبه ما يزعجه ويذهب استحضاره؛ كمرض أو جوع أو عطش أو مدافعة حَدَثٍ أو شدة فرح أو غمٍّ أو نعاس أو قلق ، ولا في حال برده المؤلم ، وحرّه المزعج ، فربّما أجاب أو أفْتى بغير الصواب). [العلموي ، ٥٥].

وتحدث عن أهمية وجود استعداد عقلي وإدراكي لدى المتعلم لتحصيل موضوع التعلم وإتقانه ، فيقول : (ولا يقرأ في كتب لا يحتملها عقله ولا تصوره ، والمطالعة في التصانيف المتفرقة تضيع الزمان وتفرق الذهن ، بل ويعطي الكتاب الذي يقرأه والفن الذي يأخذه كليته حتى يتقنه). [العلموي ، ٧٤].

٢/٢ - ٣ - عناصر الاستعداد عند علماء المسلمين :

يبدو مما سبق أن للاستعداد عناصر أساسية ينبغي توافرها لتحقيق الأهداف ، ويمكن بيان هذه العناصر بإجمال فيما يأتي :

١ - توافر القابلية عند المتعلم ، ولو في حدودها الدنيا إلا أنه يمكن تنميتها من خلال العناصر الأخرى؛ كالنية ، والخبرات .

٢ - وجود النية والرغبة في التعلم .

٣ - قدرات المتعلم .

٤ - خبرات المتعلم .

تلك العناصر وغيرها تؤثر في الاستعداد. وقد تحدث علماء المسلمين عن جملة من العناصر التي يمكن أن تؤثر في استعداد المتعلم إيجاباً أو تنمية ، فقد بينوا هذه العناصر من خلال حديثهم عن نية المتعلم ، ومواظبته على التعلم ، وجهد المتعلم ومشقته في التحصيل العلمي ، والتوكل والزهد الذي يقتضي ترك الأشياء ، أو الحد منها التي يمكن أن تشغله عن التعلم ، وفضل العلم وثمراته وثوابه ومنافعه .

١/٣/٢/٢ - النية:

وتتطلب قصد فعل التعلم ، فقد جعل أولئك العلماء نية المتعلم أساساً في خلق استعداده وتنميته ، من خلال بيان أثر النية في قبول العمل والرغبة فيه ، وتصحيح السلوك؛ إذ طلبوا من المتعلم أن تكون نيته لطلب العلم مرتبطة بعوامل داخلية ، كإزالة الجهل عن نفسه ، وشكره الخالق على نعمة العقل والبدن؛ وكذلك عوامل خارجية ، كمقصد المتعلم إرضاء الله عزَّ وجل بطلبه العلم ، والفوز بالدار الآخرة؛ إذ إنَّ كل ذلك يمكن أن يسهم في إيجاد الاستعداد وتيسيره .

قال الغزالي: (ويجب على المعلم أن ينوي بتعليمه إرشاد عباد الله تعالى إلى الحق ، فإنَّ الله تعالى لو هدى رجلاً بسببه ، فهو خير له من جميع أموال الدنيا يتصدق بها في سبيل الله (. . .) قال النبي عليه الصلاة والسلام حين بعث معاذ بن جبل إلى اليمن: «لأن يهدي بك رجلاً واحداً؛ خير لك من الدنيا وما فيها» . [الغزالي ، ٨٣] . [والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، ٥ / ٢٣٣] .

وقال الرُّزُّوجي: (ثم لا بد له - المتعلم - من النية من زمان تعلم العلم ، إذ النية هي الأصل في جميع الأحوال ، لقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» . [البخاري: كتاب بدء الوحي ، ٣ / ١] ، وينبغي أن ينوي المتعلم بطلب العلم؛ رضا الله تعالى ، والدار الآخرة ، وإزالة الجهل عن نفسه وعن سائر الجهال ، وإحياء الدين ، وإبقاء الإسلام ، فإنَّ بقاء الإسلام بالعلم ، ولا يصح الزهد والتقوى مع الجهل (. . .) وينوي به الشكر على نعمة العقل ، وصحة البدن). [الرُّزُّوجي ، ٢٧] .

ثم تحدث أولئك العلماء عن محترز النية ، وضرورة اجتناب نية المتعلم في طلبه العلم شوائب الدنيا ، ومتعلقاتها ، مثل: حب الجاه والتقرب من السلطان ، فإنَّ التعلق بالدنيا وزينتها يقلل من استعداد المتعلم للتعلم ، ويصرفه عن التحصيل العلمي. [الغزالي ، ١٠١ ، الرُّزُّوجي ، ٢٨ ، النووي ، ٥٦ ، ٧٦ ، ابن جماعة ،

٥٣]. ويربط الرُّزْنُوجِي بين النية ، وجهد المتعلم ، ومشقته في تحصيل العلم ، فيشير بدقة إلى أهمية الإخلاص في النية ، وأثره في توجيه تنمية جهد المتعلم ، وتحمله مشقة التحصيل ، بقوله : (ولا بد من تحمل النصب والمشقة في سفر التعلم . . .) ليعلم أنّ سفر العلم لا يخلو من التعب ؛ لأن العلم أمر عظيم ، وهو أفضل من الجهاد عند أكثر العلماء ، والأجر على قدر التعب والنصب). [الرُّزْنُوجِي ، ٨٥].

وذكر أولئك العلماء بعض النصائح التي تساعد المتعلم على إخلاص نيته ، وتشد من عزمه ، وتنمي فيه استعداداته للتعلم ؛ كالتفكير في فضائل العلم ومشقة تحصيله ، والمقارنة بين العلم الذي يبقى ذخراً للمتعلم في الدار الآخرة ، التي هي دار مقر ، والدنيا هي دار ممر ، وما فيها من شهوات وملذات . قال الرُّزْنُوجِي : (وينبغي لطالب العلم أن يتفكر في ذلك ، فإنه يتعلم العلم بجهد كثير ، فلا يصرفه إلى الدنيا الحقيرة القليلة الفانية). [الرُّزْنُوجِي ، ٣٠ ، وينظر : الغزالي ، ٦١ - ٦٢ ، النووي ، ٥١ ، ابن جماعة ، ٥٤ - ٥٥].

وأكدت التجارب التي أجراها التربويون صدق ما ذهب إليه أولئك العلماء من بيان أهمية النية والعزم على التعلم ، وأثرها في التعلم ، (إنّ النية ، والتصميم ، والعزم لدى المتعلم يؤثر في مستوى الاحتفاظ ؛ إذ كلما كانت النية ، والعزم على التعلم والتذكر أكبر استطاع المتعلم أن يتعلم ، ويتذكر ، ويحتفظ أكثر مما لو كان غير مصمم على ذلك . ففي إحدى التجارب أخذت مجموعتان من الطلاب : المجموعة الأولى كان لدى أفرادها نية ، وعزم على التعلم والاحتفاظ . والمجموعة الثانية لم يكن لدى أفرادها مثل هذه الرغبة والوضعية الإرادية في التعلم .

وبعد إخضاع المجموعتين للتجربة تبين أنّ كمية المعلومات التي تم الاحتفاظ بها بعد التعلم كانت أكبر لدى المجموعة الأولى ، وسبب ذلك يعود إلى أنّ النية والعزم والتصميم تشبع حالة نفسية لدى المتعلم تجعله أكثر استعداداً وتهيؤاً وأكثر قدرة على التوجه الانتقائي في المادة مما ينعكس إيجابياً على التعلم والاحتفاظ). [منصور ، ١٩٩٣ ، ١٧١ - ١٧٢]. (والنية عبارة ظاهرة نفسية لها دورها في كثير من مظاهر الحياة النفسية والعقلية عند الإنسان محتاجة إلى استمرار دراستها ووصلها ببحوثنا الحديثة في علم النفس ذلك أننا - فيما يبدو - قد أغفلنا النظر فيها ؛ لأنها لم تحتل مكاناً بارزاً في الفكر الغربي الحديث في علم النفس ، وفي التعلم بصفة خاصة). [عثمان ، ١٩٨٩ ، ١٠٤].

أشار أولئك العلماء إلى أهمية مواظبة المتعلم على التعلم في تنمية استعداده ، واستيعابه . قال الغزالي: (ويجب على المتعلم مواظبة الدرس ، والتكرار في أول الليل وآخره). [الغزالي ، ١٠٩ ، وينظر: الرُّزُّوْجِي ، ٥٣]. وقال الرُّزُّوْجِي: (قال أبو حنيفة لأبي يوسف رحمهما الله تعالى: كنت بليداً فأخرجتك المواظبة ، وإياك والكسل ، فإنه شؤم ، وآفة عظيمة). [الرُّزُّوْجِي ، ٥٦ - ٥٧].

والمواظبة تتطلب من المتعلم أمرين كي تؤدي ثمارها: الأول: مجاهدة المتعلم نفسه بوعي على المضي في تعلمه كي يصل إلى هدفه؛ إذ إنّ المجاهدة تنمي في المتعلم الاستعداد ، وترسخ فيه العزم على مواصلة التعلم ، فثمرات الأعمال ، ونتائجها الطيبة مسبوقه بمدى مجاهدة الإنسان نفسه. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ولا بد من إرادة جازمة تصبر المتعلم على تحمل مشاق تحصيل العلم ، قال الغزالي: (فإن من لم يصبر على مشقة العلم ساعة يبقى في ظلمات الجهل أبداً). [الغزالي ، ١٠٩]. وينبغي على المتعلم أن لا يجهد نفسه كثيراً ، فيكلفها ما لا تطيق ، فإن ذلك يورث ضعف الاستعداد ، ومن ثمّ الفتور في التعلم ، بل يفرق بها ، لتستمر في صبرها على مصاعب التعلم. قال ابن جماعة: (والصبر على كل عارض دون طلبه [العلم] (...). ومع ذلك فلا يحتمل نفسه من ذلك فوق طاقتها ، كي لا تسأم وتمل ، وربما نفرت نفرة لا يمكنه تداركها ، بل يكون أمره في ذلك قصداً ، وكل إنسان أبصر بنفسه). [ابن جماعة ، ٣٦ ، وينظر الرُّزُّوْجِي ، ٥٤ ، النووي ، ٩٩ - ١٠٠ ، ١٠٧ ، ابن خلدون ، ١٢٢٩ ، العملي ، ٧٤].

الثاني: التكرار الدائم للسلوك حتى يصير عادة منطبعة في نفس المتعلم ، ومن ثم يتأثر بالمواظبة التي تؤثر بدورها في سلوكه . ويرى ابن رشد أنه لا بد من الفهم للأداء والفعل المتكرر ، ومعرفة غايته وأبعاده لكي يؤدي ثماره ، فيقول: (([الصلاة] بتكرارها ليست مجرد ركوع وسجود بل تتعدى إلى بُعد ديني تربوي يتجلى في النهي عن الفحشاء والمنكر). [ابن رشد ، ٣٢].

لقد ذكر النبي ﷺ أهمية مجاهدة الإنسان نفسه؛ لخلق الاستعداد فيها ، وتنميته من أجل ترسيخ سلوك مرغوب فيه ، أو نبذ سلوك غير مرغوب فيه ، أو محاولة تعديل السلوك غير المرغوب فيه ، وتحويله إلى سلوك مرغوب فيه ، عن طريق

مجاهدة النَّفس في تكرار السلوك المرغوب فيه بشكل علمي ، تنمي قدرة الشخص ، واستعداده للتغيير .

فقد أشار النبي ﷺ إلى تلك المعاني بأحاديث كثيرة ، منها قوله ﷺ : «عليكم بالصدق فإنَّ الصدق يهدي إلى البر ، وإنَّ البر يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب ، فإنَّ الكذب يهدي إلى الفجور ، وإنَّ الفجور يهدي إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» . [مسلم : كتاب البر والصلة ، باب فتح الكذب وحسن الصدق وفضله ، ٢٠١٣/٤] . ففي الحديث دلالة واضحة على استعداد المتعلم لتغيير موقفه السلوكي من الكذب ، وتوجيهه إلى الصدق ، إذا ما عزم على ذلك ، وقرن العزم بالتدريب العملي الذي يقوم على تحري الفرد الصدق في أقواله وأفعاله . [العلي ، ٢٠٠٨ ، ٨٥ - ٨٧] .

٣/٣/٢/٢ - الزهد والتوكل والورع :

بين أولئك العلماء أنَّ الزُّهد الذي يقتضي من المتعلم عدم الاهتمام بأمر الرزق فيما يتعلق بحاجاته الأساسية ؛ من الطعام والشراب واللباس ، إيماناً منه بأنَّ التعلق بمثل هذه الحاجات ، وزيادة الاهتمام بشأنها ، يضعف من استعداد المتعلم ، ويعوقه عن مواصلة تعلمه ؛ لأنَّ شغل قلبه وذهنه بها يؤثر في تعلمه ووصوله إلى أعلى رتب العلم . قال الرُّزُّنُوجي : (ثم لا بد لطالب العلم من التوكل في طلب العلم ، ولا يهتم لأمر الرزق ، ولا يشغل قلبه بذلك . روى أبو حنيفة رحمه الله تعالى عن عبد الله بن الحارث الزبيدي رضي الله عنه صاحب رسول الله ﷺ : «من تفقه في دين الله كفاه الله همه ، ورزقه من حيث لا يحتسب» . [أخرجه الأصبهاني في مسند أبي حنيفة ، ٢٥/١ ، وقال فيه : هذا لا يعرف له مخرج إلا من هذا الوجه عن عبد الله بن الحارث ، وهو مما تفرد به محمد بن سماعة عن أبي يوسف عن أبي حنيفة ، وقد روي عن النبي ﷺ عن طريق آخر ما يجانس هذا المتن ، وهذا أيضاً حديث غريب] . فإنَّ من اشتغل قلبه بأمر الرزق ؛ من القوت ، والكسوة قلما يتفرغ لتحصيل مكارم الأخلاق ، ومعاني الأمور (. . .) ولا بد لطالب العلم من تقليل العلائق الدنيوية بقدر الوسع ، ولهذا اختاروا الغربة) . [الرُّزُّنُوجي ، ٨٤ - ٨٥ ، وينظر : ابن جماعة ، ٢٨] . وقال العَلَمُوي مبيناً أهمية مجاهدة النفس والمصابرة ، وإزالة كل ما يشغل المتعلم في تحقيق التعلم الفعَّال : (ومنها : أن يكون

زاهداً في الدنيا غير مبال بفواتها ، مقتصداً في مطعمه وملبسه وأثاثه ومسكنه ، غير مُتَرَفِّهٍ تَشْبَهًا بالسلف ، ويتأكد في حق الطالب أن يقلل علاقته من أشغال الدنيا ، ويبعد عن الأهل والوطن ، فَإِنَّ العلائق شاغلة وصارفة ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ أَلْتَّى تَنْظَهُرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب: ٤]. [العلموي ، ٧٤].

وهذا لا يعني أن أولئك العلماء يدعون المتعلم إلى التواكل وترك تحصيل أسباب المعاش ، وإنما يطلبون إلى المتعلم ألا يتعلق بها تعلقاً يؤثر في استعداده وتحصيله من جهة ، وأن يعتقد بأن تحصيل العلم وطلبه هو من أهم الأسباب الجالبة للرزق ، كما أشار إلى ذلك الحديث السابق .

وأما الورع فيشكل عاملاً رئيساً في خلق الاستعداد للتعلم وتيسيره وانتفاع المتعلم به ؛ لذلك يربط الغزالي والرُّنُوجِي بين الورع بصفته حالة وجدانية أو انفعالية ، وأثره في تيسير التعلم ، والاستفادة من الورع فيه ، قال الغزالي : (فمهما كان طالب العلم ورعاً ، كان علمه أنفع ، والتعلم أيسر ، وفوائده أكثر). [الغزالي ، ١١١ ، وينظر: الرُّنُوجِي ، ٩٧].

ثم ذكر الرُّنُوجِي ثمرة الورع الذي يمكن أن ينمي استعداد المتعلم للتعلم ، والعزم عليه ، بقوله أيضاً : (وهكذا كانوا يتورعون ، فلذلك وفقوا للعلم والنشر حتى بقي اسمهم إلى يوم القيامة). [الرُّنُوجِي ، ٩٨].

٣/٢ - مبدأ التدرج في التعلم :

لما كانت المدرسة التربوية الحديثة تهتم بقدرات المتعلم ؛ المعرفية والعقلية وميوله واستعداداته وكفاءته ، من أجل الوصول إلى أفضل أنواع التعلم ، كان عرض المفاهيم والحقائق والمعارف عرضاً متدرجاً متناسباً مع نمو المتعلم عقلياً ومعرفياً ، يتيح للمتعلم تحقيق مستوى طموحه ، واستثمار كامل إمكاناته ، والاستمرار في كسب الخبرات والمعارف ، وتحقيق أعلى درجات الإتقان في تحصيله العلمي .

لقد تحدث علماء المسلمين عن أهمية التدرج في التعليم والتعلم ، وضرورة مراعاة المعلم الفروق الفردية بين المتعلمين . فقد أشار ابن سحنون ، وغيره إلى مبدأ التدرج في التعليم من السهل إلى الصعب ، ومن البسيط إلى المركب ، من خلال

إرشاده المعلم تعليم الصبي السُّور القصار في القرآن الكريم ، ثم الانتقال إلى السُّور الطوال ، والابتداء بتعليم الحروف أولاً ، ثم ضبطها ، ومن ثمَّ أحكامها ، وصفاتها . وبعد تعليم المتعلم القرآن ينتقل المعلم بالتدرّج إلى تعليم المتعلم أنواع العلوم الأخرى؛ كالعقيدة والحساب ، بقوله: (وبعد حذقه الحروف وضبطها بالشكل يدرجه بذلك يألفه طبعه ، ثم يعرفه عقائد أهل السنة والجماعة ، ثم أصول الحساب ، وما يستحسن من المراسلات والأشعار). [ابن سحنون ، ٢٨٤ ، وينظر: العلموي ، ٤٥ - ٤٦].

ويرى ابن خلدون ضرورة التدرّج في تعليم المتعلمين ، فيقول: (اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدرّج شيئاً فشيئاً وقليلًا قليلًا ، يلقي عليه أولاً مسائل من كل باب من الفنّ هي أصول ذلك الباب ، ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال ، ويراعي في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن ، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم إلا أنها جزئية وضعيفة (. . .) ثم يرجع به إلى الفنّ ثانية فيرفعه في التلقين ثانية عن تلك الرتبة إلى أعلى منها ، ويستوفي الشرح والبيان ويخرج عن الإجمال ، ويذكر ما هنالك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته). [ابن خلدون ، ١٢٣٣].

وأشار القابسي إلى أهمية تعليم الصبيان تركّ الخطأ بالتدرّج ، بالإضافة إلى تعليمهم اختيار الشيء الحسن بالتدرّج أيضاً ، والتدرّج بحفظ القرآن بقوله: (ليتدرّج على مجانبة الخطأ ، وإذا هو أحسن ، يغبطه بإحسانه في غير انبساط إليه ، ولا منافرة له؛ ليعرف وجه الحسن من القبح ، فيتدرّج على اختيار الحسن ، وهذا ما يدل عليه الاجتهاد (. . .) ومن الاجتهاد للصبي ألا ينقله من سورة إلى غيرها حتى يحفظها بإعرابها وكتابتها). [القابسي ، ٢٧٢].

لقد أرشد مسكويه إلى الطرائق المحمودة في تأديب الأطفال ، وأهمية التدرّج في غرس الخلق المحمود فيهم ، وكذلك التدرّج في نزع الخلق السيء منهم ، بقوله: (وإذا عرفت هذه الطرائق المحمودة في تأديب الأحداث ، فقد أعرفك بأضدادها ، أعني: من نشأ على خلاف هذا المذهب والتأديب لم يرحّ فلاحه (. . .) فإنّ مثل هذا الإنسان من يرحى له التروع عن أخلاقه بالتدرّج ، والرّجوع إلى الطريقة المثلى بالتوبة وبمصاحبة الأخيار وأهل الحكمة). [مسكويه ، ٧٤ - ٧٥].

وجعل الماوردي التدرّج بأخذ أساسيات العلوم وأوائلها ومداخلها أولاً ، ثمَّ

التعمق فيها ، والوصول إلى حقائقها ثانياً ، والتدرج من المحسوس إلى المجرد ، والتدرج من السهل إلى الصعب ، فيطلب ما سهل من العلم ، ثم ما صعب منه ، وعدم الأخذ بالأصعب إذا استطاع إدراك الشيء بالأسهل ، بقوله : (واعلم أن للعلوم أوائل تؤدي إلى أواخرها ، ومداخل تفضي إلى حقائقها ، فليبتدئ المتعلم بأوائلها لينتهي إلى أواخرها ، وبمداخلها ليفضي إلى حقائقها ، ولا يطلب الآخر قبل الأول ، ولا الحقيقة قبل المدخل ، فلا يدرك الآخر ، ولا يعرف الحقيقة؛ لأن البناء على غير أسس لا يبنى ، والثمر من غير غرس لا يجنى). [الماوردي ، ٣٣].

وقال أيضاً: (إذا قرب منك العلم فلا تطلب ما بُعد ، وإذا سهل من وجهة فلا تطلب ما صعب ، وإذا حمدت من خبرته فلا تطلب من لم يخبره ، فإن العدول عن القريب إلى البعيد عناء ، وترك الأسهل بالأصعب بلاء ، والانتقال من المخبور إلى غيره خطر (...)) وقال بعض الحكماء: القصد أسهل من التعسف ، والكف أودع من التكلف ، وربما تتبع نفس الإنسان من بعد عنه استهانة بمن قرب منه ، وطلب ما صعب ، احتقاراً لما سهل عليه ، وانتقل إلى من لم يخبره ، ملأ لمن خبره ، فلا يدرك محبوباً ، ولا يظفر بطائل ، وقد قالت العرب في أمثالها: العالم كالكعبة ، يأتيها البعداء ، ويزهد فيها القرباء). [الماوردي ، ٥٧].

لقد أرشد الغزالي المعلم إلى البدء بالتعليم متدرجاً من الأهم إلى المهم ، مما يحتاج إليه المتعلم من فنون العلوم ، فيقول: (ويبدأ المعلم في تعليم المتعلم بأقرب ما يفتقر إليه الطالب ، وأهم ما ينفعه في الدنيا والآخرة ، فإن التعليم كتعمير البيت؛ فإذا الباني عمّر البيت من أي جنب خرب ، وكذلك المعلم يعلم المتعلم من أي فن جهل). [الغزالي ، ٨٦ ، وينظر: الرُّزُّوْجِي ، ٣٢] وقال الغزالي أيضاً: (يجب على المتعلم أن يقدم في التعلم الأهم من العلوم ، وهو الصرف والنحو وغيرها على الترتيب). [الغزالي ، ١٠٣].

ويرى الغزالي والرُّزُّوْجِي أنه ينبغي أن تكون أنشطة التعلم وممارساته متدرجة ، فطلباً من المعلم أن يقدم للمتعلم المبتدئ ما يناسب قدراته ، وما يكون أقرب إلى فهمه ، وطلباً أيضاً الأمر ذاته من المتعلم ، فأرشده إلى أهمية التدرج في التعلم فقال الرُّزُّوْجِي: (قال مشايخنا - رحمهم الله تعالى -: ينبغي أن يكون قدر السَّبْق للمبتدئ قدر ما يمكن ضبطه بالإعادة مرتين بالرفق. ويزيد كل يوم كلمة ، حتى وإن طال السَّبْق وكثر يمكن ضبطه بالإعادة مرتين. ويزيد بالرفق والتدرج).

[الرُّزُّنُوجِي ، ٦٧ ، وينظر الغزالي ، ١١٦]. وقال الرُّزُّنُوجِي أيضاً موصياً المعلم والمتعلم باختيار الكتب البسيطة في أثناء عملية التعليم والتعلم: (وينبغي أن يتبدى بشيء يكون أقرب إلى فهمه (...)) والصواب عندي في هذا ما فعله مشايخنا - رحمهم الله تعالى - فإنهم كانوا يختارون للمبتدئ صغارات المبسوط^(١)؛ لأنه أقرب إلى الفهم والضبط ، وأبعد عن الملالة ، وأكثر وقوعاً بين الناس). [الرُّزُّنُوجِي ، ٦٨]. وأشار الرُّزُّنُوجِي أيضاً إلى مبدأ التدرج في الحفظ ، حينما ذكر وصية بعض علماء الحنفية لابنه أن يحفظ كل يوم شيئاً يسيراً من العلم ، فقال: (وصى الصدر الشهيد حسام الدين ابنه شمس الدين أن يحفظ كل يوم شيئاً يسيراً من العلم والحكمة ، فإنه عن قريب يكون كثيراً). [الرُّزُّنُوجِي ، ٩٥].

وتحدث النووي عن ضرورة تعليم المتعلمين قواعد مذاهب الفقهاء ، ولا سيما مذهب الإمام الشافعي بالتدرج ، بقوله: (ويبين له على التدرج قواعد المذهب (...)) ويبين له جُملاً مما يحتاج إليه ، وينضبط من أصول الفقه ، وترتيب الأدلة ، (...)) وجُملاً من الألفاظ اللغوية والعرفية المتكررة في الفقه (...)) ويبين ما ينضبط من قواعد التصريف (...)) ويكون تعليمه إياهم كل ذلك تدريجياً شيئاً فشيئاً). [النووي ، ٨٩ - ٩٣].

وذكر ابن جماعة أن ينبغي على المعلم أن يستعمل التدرج في أثناء تعليمه في كل ما يعين على التحصيل العلمي ، بقوله: (لكن الشيخ يحرض المبتدئ على حسن النية بتدرج قولاً وفعلاً (...)) ويرغبه مع ذلك بتدرج على ما يعين على تحصيله [العلمي]). [ابن جماعة ، ٥٤ - ٥٥ ، وينظر: العلمي ، ٤٥ - ٤٦]. وذكر أهمية الانتقال والتدرج في تعليم المنهاج ، فيبدأ المعلم بشرح المختصرات من الكتب ، ثم ينتقل إلى المبسوطات ، بقوله: (إذا شرح محفوظاته المختصرات ، وضبط ما فيها من الإشكالات والفوائد المهمات انتقل إلى بحث المبسوطات). [ابن جماعة ، ١٢٥].

وأشار ابن جماعة والمغراوي والهيتمي والعلمي ، إلى ضرورة استعمال التدرج بتأديب المتعلم وعقوبته؛ لأغراض تعليمية وتربوية ، إذا صدر منه ما يستدعي ذلك؛ من ارتكاب محظور ، أو إساءة أدب مع أستاذه أو رفاقه ، أو عدم

(١) المبسوط: الكتب البسيطة.

انضباطه في الدرس ، أو التخاذل في حفظه ، فإنّ المعلم في كل تلك الحالات ، يتدرج في عقوبته ، فيبدأ بالنهي عن هذا التصرف بحضور من صدر منه غير معين له ، فإن لم ينته عن ذلك نهائياً سرّاً ، ويكتفي بالإشارة ، وإن لم ينته نهائياً عن ذلك جهراً ، ويغلظ القول عليه إن اقتضاه الحال ، وإن لم ينته وخاف من إفساده الدرس ، طرده المعلم منه ، لينزجر هو وغيره. [ابن جماعة ، ٦٥ - ٦٦ ، وينظر: القاسبي ، ٢٩٧ - ٣٠٠ ، المغراوي ، ٧٨ ، ٨٥ ، الهيتي ، ٧١ - ٧٢ ، العلمي ، ٤٧].

ويبدو مما سبق أن مذكوره أولئك العلماء حول التدرج في التعليم والتعلم ، ومدى مراعاتهم القواعد العامة في التدريس الذي يعدّ الوسيلة الأهم للتعلم ، وبيانهم العلاقة بين التدريس ومبادئ التعلم ، وتأثير كل منهما في الآخر ، ورأيهم في إمكانية ضبط سلوك المتعلم؛ المعرفي والخُلقي ، ومراعاة ميوله وقدراته واستعداده وبناء معرفته التي تتناسب مع طبيعته ومتطلباته ، وذلك من خلال التدرج في تعليمه وتربيته ومراعاة القواعد العامة في أصول التدريس؛ كالتدرج من السهل إلى الصعب ، ومن البسيط إلى المركب يتوافق مع ما نادى به علماء التربية المحذثون ، من أمثال «ادوارد كلاباريد» (١٨٧٣ - ١٩٤٠م) السويسري ، و«فريير» (١٨٧٩م -) السويسري أيضاً ، والمربي الأمريكي «وليم هارد كيلبارك» (١٨٧١م -). [الأنسي ، باقارش ، ١٩٩٩ ، ٢٥٢ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠]. ومن ثمّ فإنّ ذلك ليسجل سبقاً علمياً تربوياً لعلماء المسلمين .

٤ / ٢ - مبدأ التغذية الراجعة :

١ / ٤ / ٢ - أهمية التغذية الراجعة :

ظهر مفهوم التغذية الراجعة (feedback) نتيجة للأبحاث التي عملت على تدريب الجنود على الآلات الحربية الحديثة في أثناء الحرب العالمية الثانية ، واستعمل في مجالات كثيرة. [الغريب ، ١٩٦٧ ، ٣٨٩]. غير أنه اكتسب أهمية خاصة في مجال التعلم ، إذ إنه يمكن المتعلم من التعلم بيسر ويصحح أخطائه ، ويزيد من ثقة المتعلم في صحة نتائج تعلمه ، وتقوية الاستجابات المتعلمة ، وتدعيمها. [الشرقاوي ، ١٩٩٨ ، ٢٨٣ ، وينظر: منصور ، ١٩٩٣ ، ٥٨].

٢ / ٤ / ٢ - مفهوم التغذية الراجعة :

تمثل التغذية الراجعة : (المعلومات التي يتلقاها المتعلم من شخص آخر يكون

مصدرها ، وتهدف إلى تعزيز استجاباته إن كانت صحيحة ، وإلى تصحيحها إن كانت خطأ ، وتقريب أدائه الفعلي من الأداء المطلوب). [منصور ، ١٩٩٣ ، ٥٧].
ثم إن التغذية الراجعة تقوم بدور المنظم والمراقب ، فترد من المخرجات إلى المدخلات والعمليات بغية تصحيح المسار ، وتشتمل على تقييم المدخلات ، وجمع المعلومات وتحليلها ، وتقييم العمليات ، وتقييم المخرجات. [سلامة ، ٢٠٠٠ ، ١٥]. وتسمح التغذية الراجعة للمعلمين في تحسين أداء المتعلمين ، من خلال تقويم مراحل تعليمهم ، حسب التغذية الراجعة المقدمة إليهم. [إلياس ، ٢٠٠١ ، ٦٥].

٢/٤/٣- وظائف التغذية الراجعة:

للتغذية الراجعة وظائف وأنماط كثيرة ، يمكن ذكر أهمها ، ولا سيما تلك التي تفيد في موضوع البحث.

٢/٤/٣/١- الوظيفة الإعلامية:

تزود التغذية الراجعة المتعلم بمعلومات تمكنه من الحكم على مدى ملاءمة استجاباته ، وتوجيهها نحو الأهداف المرغوب فيها ، وترشده إلى كيفية الوصول إليها من خلال تأكيد ما هو صحيح ، وثبته من جهة ، والكشف عن جوانب القصور ومواطن الخطأ وتصحيحها من جهة أخرى. [منصور ، ١٩٩٣ ، ٥٩].

٢/٤/٣/٢- الوظيفة الدافعية (التشويقية):

إنّ التغذية الراجعة في مجال تنظيمها بصورة صحيحة تساعد في النهوض بدافعية التعلم ، بحيث تعطي التعلم قوة أكبر ، وتجعل جهود المتعلم أكثر حماسة ، من خلال ما تولده من أنشطة جديدة موجهة ، وما تزود المتعلم به من معلومات تضمن له التوجه نحو الأهداف المتوخاة ، بصورة صحيحة ، وبقوة متعاضمة في ضوء ما يطلق عليه قانون (الطاقة المتزايدة) الذي يقصد به أن الفرد كلما اقترب من هدفه أكثر زاد من الجهود التي يبذلها. [منصور ، ١٩٩٣ ، ٦٠].

٢/٤/٣/٣- الوظيفة التعزيزية:

إنّ المعلومات التي تحملها التغذية الراجعة عن سلوك ما ، من شأنها تقوية هذا السلوك وتثبيته إن كان صحيحاً. كما أنها تجعل إمكان حدوثه أكثر احتمالاً في المستقبل. [منصور ، ١٩٩٣ ، ٦١].

٤/٣/٤/٢ - الوظيفة التصحيحية:

إن هذه الوظيفة تعد من أهم وظائف التغذية الراجعة على الإطلاق؛ إذ إن إعلام المتعلم أن إجابته عن بند من بنود الاختبار غير صحيحة ، وبيان أسباب الخطأ ، وكيفية تصحيحه ، يسبب دوماً تحصيلاً أسرع ، ومقاومة للنسيان أكبر. [منصور ، ١٩٩٣ ، ٦١].

٤/٤/٢ - أنماط التغذية الراجعة:

ذكر علماء النفس أنماطاً كثيرة للتغذية الراجعة ، يمكن ذكر أهمها فيما يأتي:

١/٤/٤/٢ - التغذية الراجعة الداخلية والخارجية:

التغذية الراجعة الداخلية: وهي التي يستخلصها المتعلم من خبراته ، وممارساته بصورة مباشرة ، وهي معلومات نابعة من ذات الإنسان ، تؤدي إلى توجيه استجابات المتعلم ، وضبط اتجاهاته في العمل ، فيدرك بنفسه ، ويعتمد على ذاته في معرفة خطئه من صوابه. [منصور ، ١٩٩٣ ، ٦٢ ، وينظر: خير الله الكناني ، ١٩٨٣ ، ١٤٤].

وأما التغذية الراجعة الخارجية: فهي المعلومات والإشارات التي يقدمها مصدر خارجي؛ كالمعلم ، أو المدرب للمتعلم حول مدى نجاحه في أداء مهمة ما ، ومستوى إنجازها ، مما يؤدي إلى تغيير ما هو خطأ منها ، وتعزيزها ، وتثبيتها إن كانت صحيحة. وقد تقدم التغذية الراجعة الخارجية بشكل كلام شفوي ، أو مكتوب - اختبارات - أو على هيئة عمل ، أو على شكل انفعالات أو تعبيرات عاطفية. [منصور ، ١٩٩٣ ، ٦٢].

٢/٤/٤/٢ - التغذية الراجعة المباشرة وغير المباشرة:

التغذية الراجعة المباشرة: هي تلك المعلومات التي يقدمها أحد أطراف العملية التعليمية إلى الطرف الآخر مباشرة - من دون أي وسيط - عن نتائج أعماله .

وأما التغذية الراجعة غير المباشرة: فهي تلك المعلومات التي تقدم بطريقة غير مباشرة ، وباستخدام وسائط مختلفة؛ كأن تقدم عن طريق شخص ، أو وسائل الإعلام. (إن بعض العلماء يفضلون التغذية الراجعة غير المباشرة في كثير من مواقف التعلم أو العمل ، من أجل استبعاد تأثير الموقف ككل ، وكذلك العامل الشخصي الخاص بكلتا الطرفين. إلا أن غالبية العلماء يفضلون التغذية الراجعة المباشرة ،

وبخاصة في التعليم والتعلم الصفي ، ويرون أنها أكثر فاعلية من التغذية الراجعة غير المباشرة ، ولا سيما إذا توافرت عوامل الدقة والحرص والموضوعية من جانب من يقدمها). [منصور: ١٩٩٣ ، ٦٥].

٣/٤/٤/٢ - التغذية الراجعة الفورية والمؤجلة:

التغذية الراجعة الفورية: تعقب السلوك أو الأداء مباشرة ، وتزود المتعلم بالمعلومات ، أو التوجيهات ، أو الإرشادات ، أو الإيحاءات اللازمة لتعزيز العمل ، أو تعديله أو تصحيحه .

وأما التغذية الراجعة المؤجلة: فهي التي تزود المتعلم بالمعلومات بعد فترة من الزمن على قيامه بالعمل ، وقد تطول هذه الفترة أو تقصر على حسب الظروف ومقتضى الأحوال. إنّ التغذية الراجعة المؤجلة أكثر فاعلية من التغذية الراجعة الفورية في المهمات التعليمية الصعبة والمعقدة؛ لأنها تتيح فرصة أكبر للتفكير ، واكتشاف الأخطاء ، وتصحيحها. [منصور ، ١٩٩٣ ، ٦٥ - ٦٦].

٤/٤/٤/٢ - التغذية الراجعة الإعلامية والتصحيحية:

تتخذ التغذية الراجعة الإعلامية شكل معلومات تتضمن تقويماً إجمالياً للسلوك؛ بحيث يعرف المتعلم نتائج أفعاله دون أن تتوافر له المسوغات والبراهين الضرورية التي أدت إلى إطلاق هذا الحكم. وتساعد هذه التغذية على تحديد جهة العمل ، والمنحى العام له. [منصور ، ١٩٩٣ ، ٦٧].

إنّ مجرد إخبار المتعلم بنوع الخطأ الذي ارتكبه يساعده في كيفية تصحيحه ، ومن ثمّ يسرع في تعلمه. [عافل ، ١٩٩٠ ، ١٩٠].

أما التغذية الراجعة التصحيحية فتقدم المعلومات للمتعلم فور وقوعه في الخطأ ، بقصد مساعدته على تصحيح أذائه ، ومن ثمّ تعريفه بأسباب إجابته الخطأ. [منصور ، ١٩٩٣ ، ٦٧ - ٦٨]. (إنّ أفضل أشكال التغذية الراجعة من حيث الفاعلية في التعلم ، ورفع مستوى تحصيل الطلبة الدراسي هو معرفة الطلبة للإجابات الصحيحة والخطئة وتصحيح الإجابات الخطئة ، ومناقشة الإجابات الصحيحة والخطئة. [أبانمي ، ١٩٩٤ ، ٦٣].

٥/٤/٢ - وظائف التغذية الراجعة وبعض أنماطها في الفكر التربوي الإسلامي :

لقد أشار علماء المسلمين إلى مضمون بعض أنماط التغذية الراجعة ووظائفها.

فأشاروا إلى الوظيفة التعزيزية للتغذية الراجعة حينما ربطوا بوضوح بين المثير ، والاستجابة ، قال الرُّزُّوجي: (ينبغي لكل مسلم أن يشتغل في جميع أوقاته بذكر الله تعالى والدعاء ، والتضرع وقراءة القرآن ، والصدقات الدافعة للبلاء (...). ليصونه من البلاء والآفات ، فإن من رزق الدعاء لم يحرم الإجابة). [الرُّزُّوجي ، ٢٤].

ويبدو للباحث من كلام الرُّزُّوجي أنه قد وجد السلوك الاستجابي (الإشراط البافلوفي) الذي يقوم على الربط بين مثيرات واستجابات معينة ، في إطار ما يعرف (بالفعل المنعكس الشرطي الكلاسيكي)؛ إذ تحدث الاستجابة في هذا النوع من السلوك عند ظهور المثير مباشرة. [منصور ، ١٩٩٣ ، ٢٩٣].

فيلاحظ أنّ الربط بين المثير وهو استجابة الدعاء ، وبين الاستجابة التي هي الدعاء ليشكل علاقة طردية؛ إذ يتكرر حدوث الاستجابة المحددة ، بحدوث المثير المحدد مسبقاً ، وفي ذلك تعزيز وتقوية الاستجابة؛ إذ إنّ المتعلم يدعو الله سبحانه وتعالى دائماً ما دام علم أنّ الله سبحانه وتعالى يستجيب دعاءه ، وهذا ما يمثل جوهر السلوك الاستجابي (الإشراط البافلوفي).

ويلاحظ من النص السابق أيضاً أن المثير تمثل في الإشراط الإجرائي الذي يعقب الاستجابة مباشرة ، وهو دفع البلاء ، وتجنب المتعلم المثيرات المؤذية الأخرى؛ كالمصائب التي يمكن أن تحدث له في نفسه أو ماله أو أهله. والاستجابة تمثلت بذكر الله سبحانه وتعالى ، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الاستجابات؛ كقراءة القرآن والدعاء .

وهذا ما يمثل جوهر النظرية الإجرائية التي تعدّ السلوك موضوعها الأساس ، والإشراط الإجرائي - الذي اكتشفه العالم الأمريكي «بروس فريدريك سكينر» في منتصف القرن العشرين - الذي تكون فيه الاستجابة غير محددة ، وإنما هي إجرائية؛ لأنه لا يوجد مثير معيّن استدعى الاستجابة الإجرائية ، كما هو الحال في السلوك الاستجابي (الإشراط البافلوفي). والاستجابات الإجرائية بصفة عامة تهدف إلى الحصول على مكافأة ، أو تجنب مواقف مؤذية أو مؤلمة. [منصور ، ١٩٩٣ ، ٢٩٤].

والاستجابات الإجرائية لا تتوقف على المثير فحسب ، بل على عدد كثير من المثيرات والظروف المحيطة بالمتعلم. [منصور ، ١٩٩٣ ، ٣٠٠] ، فذكر

الله سبحانه وتعالى الذي يمثل الاستجابة ليس وحده كافياً لحصول المثير الذي هو دفع البلاء ، بل هناك عدد من الشروط والظروف الأخرى ؛ كإقامة أركان الإسلام ، وقواعد الإيمان التي ينبغي توافرها ، لكي تسهم الاستجابات في تحقيق أهدافها .

ثم إنه يلاحظ أن هناك عدداً من المثيرات ؛ دفع البلاء عن النفس ، والمال ، والأهل ، والحصول على الأجر والثواب ، وتجنب العقاب . . . إلخ ، وعدداً من الاستجابات أيضاً ؛ كالذكر وقراءة القرآن والصدقات والدعاء . . . إلخ . وأن التعزيز يتعلق أساساً بالاستجابة ، ويرتبط بالمثير أيضاً .

وفي هذا يختلف الفكر التربوي الإسلامي عن «سكنر» الذي يرى أن (التعزيز مُنْصَبٌّ عَلَى الاستجابة ، وليس على المثير) . [منصور ، ١٩٩٣ ، ٢٩٨] .

فالمثير قد يزيد من الاستجابة وتكرارها وتنوعها ، والاستجابة قد تزيد من المثير وتكراره وتنوعه ، فذكر المتعلم الله سبحانه وتعالى (الاستجابة) ، وزيادته وتنوعه قد يزيد من المثير وينوعه ، فقد يعطي الله سبحانه وتعالى المثير المادي الثواب المادي والمعنوي الذي لم يخطر بباله ، ويدفع عنه من الآلام والمصائب المختلفة التي لم يكن يتوقعها ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠١﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٠٢﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُنِيحَ لَكُمْ وَجَنَّتْ لَكُمْ جَنَّتٌ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٠٣﴾ [نوح: ١٠-١٢] . فالاستغفار (استجابة) نوع من الذكر ، قد يتولد منه عدد كبير من المثيرات المعرزة المتنوعة ؛ المادية والمعنوية ؛ كإنزال الأمطار ، وإيجاد وتنمية مياه الأنهار ، وزيادة الأموال والبنين ، وإنشاء جنات في الدنيا والآخرة .

وهذه المثيرات والمعرزات الإيجابية المتنوعة يمكن أن تزيد من احتمال حدوث الاستجابة لدى المتعلم وتنوعها ، فيقوم بزيادة الاستغفار ، ومن ثمَّ يستمر في هذا السلوك .

وتتضح الإشارة أيضاً إلى الوظيفة التعزيزية والتشويقية للتغذية الراجعة من خلال القصة التي ذكرها الغزالي عن العالم المحدث خلف بن أيوب البلخي الحنفي ، حينما أرسل ابنه من مدينة بلخ إلى بغداد للتعلم ؛ فأنفق عليه خمسين ألف درهم ، فلما رجع ، سأله أبوه قائلاً: ما تعلمت؟ فقال الابن: تعلمت مسألة واحدة^(١) ،

(١) المسألة هي: أن زمان الغُسل محسوب من الطهر في حق صاحبة العشرة ، ومحسوب من الحيف فيما دونها .

فقال الأب: ما ضيّعت سفرك. [الغزالي، ١١٨].

فتظهر الوظيفة التثويقية من خلال دفع المتعلم ليبدل جهداً أكبر وبحماسة أكثر؛ ليصل إلى أهدافه بتحقيق تعلم أفضل.

وأما الوظيفة التعزيزية فتبدو من خلال ما يحمله جواب الأب عن سلوك الابن من تقوية هذا السلوك وتثبيته ما دام صحيحاً وإن كان قليلاً، وما يحمله هذا الجواب أيضاً من تعزيز يجعل إمكان حدوث سلوك المتعلم أكثر احتمالاً في المستقبل.

واشترط ابن حجر الهيتمي في جواز التعزيز السليبي للمعلم أن يغلب على ظنه أنه يزرع المتعلم عن السلوك غير المرغوب فيه من غير أن يؤذيه؛ نفسياً أو عضوياً، أما إذا ظن أنه لا يفيد، فلا يرى جوازه. [الهيتمي، ٧٢].

لقد أشار علماء المسلمين إلى مضمون أنماط التغذية الراجعة؛ الإعلامية، والداخلية، والخارجية، والتصحيحية، والفورية، في نصوص كثيرة. فالقاسبي طلب من المعلم حينما يعلم المتعلمين الأحكام الشرعية المتعلقة ببعض المعاملات المالية - ولا سيما التي يمكن أن يدخلها الربا - أن ينههم عن صور المعاملات غير الصحيحة، ويبين لهم كيفية تصحيحها، بقوله: (ثم يأخذ عليهم المعلم، ويشدد عليهم في الأخذ ألا يعودوا إلى التبايع فيما بينهم (...)) ويعرفهم وجه الربا فيما صنعوا على ذلك، يخبره بعينه، ويقبحه عنده، ويتواعده بشدة العقوبة عليه إن هو عاود). [القاسبي، ٢٧٢].

وأشار الماوردي إلى بعض أنماط التغذية الراجعة، ولا سيما التصحيحية، حينما طلب من الصديق الناصح أن يبين عيوب صديقه ومساوئه، لكي يتخلص من السلوك السيئ، بقوله: (ينبغي للعاقل أن يسترشد إخوان الصدق الذين هم أصفياء القلوب، ومرايا المحاسن والعيوب، على ما ينبهونه عليه من مساويه (...)) ويجعلون ما ينبهون عليه من مساويه عوضاً عن تصديق المدح فيه.

وقد روى أنس بن مالك، عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن مرآة المؤمن، وإذا رأى فيه عيباً أصلحه». [الحديث أخرجه ابن وهب في (الجامع في الحديث)، رقم /٢٠٣/، ٣٠٠]، وكان عمر رضي الله عنه يقول: رحم الله امرأً أهدى إلينا مساوينا. وقيل لبعض الحكماء: أتحب أن تهدى إليك عيوبك؟ قال: نعم، من ناصح). [الماوردي، ٢٠٦].

ويقول الغزالي: (ويجب على المعلم أن يشخص طبيعة المبتدئ من الذكاوة والغباوة ، ويعلمه على مقدار سعته ، ولا يكلف الزيادة في مقداره ، ومن كُلف يسئ عن تحصيل العلم ، فيتبع الهوى ، ويشكل تعليمه ، ولا يشرك الذكي مع الغبي ، فهو تقصير في الذكي ، وكسلان في الغبي). [الغزالي ، ٨١]؛ إذ ينصح الغزالي المعلم ، ويقدم له معلومات ، تعينه على تعليم المتعلم ، فينبهه على ضرورة معرفة طبيعة المتعلم ، ومراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين ، وتكليفهم ما يطيقون ، وتأكيده أهمية الفصل بين المتفوقين والمتأخرين دراسياً؛ لأن في دمجهم ظلماً لهم ، فأحدهم يحتاج إلى علوم تناسب ذكائه وقدراته ، وآخر يحتاج إلى مراعاة قلة استيعابه ، ثم حكم الغزالي على عدم الأخذ بتعليماته ، ونتائجها. وقال الرزنجوي: (وإياك أن تشتغل بهذا الجدل الذي ظهر بعد انقراض الأكابر من العلماء ، فإنه يبعد الطالب عن الفقه ، ويورث الوحشة والعداوة). [الرزنجوي ، ٣٢ - ٣٣].

فيلاحظ في هذا النص أن الرزنجوي حذر المتعلم من الخوض بالجدل العقيم ، وبين أفة الاشتغال به ، من حيث إبعاد المتعلم عن العلم ، وتضييعه العمر فيما لا ينفع ، وتوريثه العداوة مع أقرانه ، وبذلك يكون قد قدم بعض المعلومات للمتعلم عن ثمره الجدل من أجل تثبيت سلوكه بالابتعاد عن الجدل من ناحية ، وتغيير سلوكه الخطأ فيما إذا اشتغل بالجدل من ناحية أخرى.

ففي النصوص السابقة تتضح التغذية الراجعة الخارجية والفورية والمباشرة والتصحيحية. وتبدو الخارجية من خلال إعطاء المعلم أو المتعلم بعض المعلومات التي تضبط سلوكه التعليمي التعليمي. وأما الفورية والمباشرة فتبدو من خلال بيان العمل والحكم عليها سلبياً أو إيجابياً بعد الانتهاء من العمل أو في أثناءه. وأما التصحيحية فظهرت من خلال تصحيح الأخطاء التي وقع فيها المتعلم.

ويستشف مما قال الرزنجوي أيضاً إشارته إلى مضمون التغذية الراجعة الخارجية في نصوص أخرى منها: قوله: (ثبت بهذا الحديث^(١) أن ارتكاب الذنب سبب

(١) يقصد بذلك الحديث قوله: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه». [ابن ماجه: كتاب الفنن ، باب العقوبات ، ١٣٣٤/٢ ، والحاكم: كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والذكر: ٦٧٠/١ ، وقال عنه: «صحيح الإسناد» ، وقال عنه الكنتاني في «مصباح الزجاجة»: ١٨٧/٤ : إسناده حسن.

حرمان الرزق ، خصوصاً الكذب ، فإنه يورث الفقر). [الرُّزْنُوجِي ، ١٠٧] ،
وقوله: (نوم الصبحة يمنع الرزق ، وكثرة النوم تورث الفقر وفقد العلم).
[الرُّزْنُوجِي ، ١٠٧ - ١٠٨] ، فيلاحظ في هذه النصوص أن الرُّزْنُوجِي يعطي المتعلم
معلومات من شأنها أن تغير من سلوكه غير المرغوب فيه ، وتثبيت سلوكه الصحيح .
[العلي ، ٢٠٠٨ ، ٩٩].

ويبدو للباحث مما قال الغزالي والرُّزْنُوجِي الإشارة إلى مضمون التغذية الراجعة
الداخلية ، عندما نقلا عن أبي حنيفة سبب إدراكه أعلى رُتَب العلم ، فقال الغزالي:
(قال أبو حنيفة: إنما أدركت العلم بالجهد والشكر ، فلما فهمت ووقعت على علم
قلت: الحمد لله؛ فازداد علمي). [الغزالي ، ١١١]. وقال الرُّزْنُوجِي: (قال
أبو حنيفة: إنما أدركت العلم بالحمد والشكر ، فكلما فهمت شيئاً من العلوم ،
ووقفت على فقهه وحكمه ، قلت: الحمد لله ، فازداد علمي). [الرُّزْنُوجِي ، ٧٧].
فبين الغزالي والرُّزْنُوجِي أن سبب إدراك أبي حنيفة العلم وممارسته له هو شكر
الله تعالى على نعمه. وهذا الشكر الذي مارسه أبو حنيفة بصورة مباشرة ووصل
بخبرته التي نبعث من ذاته إلى أن هذا الشكر قد ضبط عمله ، ووجه استجاباته حتى
حصل أعلى مراتب العلم. [العلي ، ٢٠٠٨ ، ٩٩].

ويمكن الاستنتاج مما قاله الرُّزْنُوجِي أيضاً إشارته إلى مضمون التغذية الراجعة
التصحيحية والفورية ، حينما نقل عن أبي حنيفة أنه رأى كاتباً يقرمط في الكتابة ،
حيث يضيق الفراغ بين السطور ، ويقارب بين الكلمات ، من أجل ترشيد استهلاك
الورق ، فأرشده إلى ترك السلوك الخطأ ، ويبيّن له نتائج عمله التي تمثلت في ندامته
في الحياة ، بسبب كبر سنه ، وضعف بصره اللذين يمنعه من قراءة ما كتب بنفسه ،
بالإضافة إلى شتم الناس له بعد موته؛ لأنهم قد لا يحسنون قراءة ما كتب ، بسبب
صغر الخط ومقاربة السطور ، ومن ثمّ فإنّ إخبار المتعلم بخطئه والنتائج المترتبة
عليه وضرورة تصحيح هذا الخطأ ، وعدم ممارسة هذا السلوك مستقبلاً ليشير أيضاً
إلى التغذية الراجعة الإعلامية والتصحيحية والفورية .

قال الرُّزْنُوجِي: (ومن التعظيم الواجب - للكتاب - أن يجود كتابة الكتاب ،
ولا يقرمط ، ويترك الحاشية إلا عند الضرورة ، ورأى أبو حنيفة رحمه الله تعالى
كاتباً يقرمط في الكتابة ، فقال: لِمَ تقرمط خطك؟! إن عشت تندم ، وإن مُت
تُشتم!! يعني: إذا سُخِّتَ وضعف بصرك ندمت على ذلك). [الرُّزْنُوجِي ، ٤٦].

ويستشف الباحث مما قال الغزالي والرُّنُوجي وغيرهما أيضاً الإشارة إلى مضمون التغذية الراجعة التصحيحية والخارجية والفورية حينما تحدثوا عن المناظرة والمذاكرة ، والمشاورة ، والمطارحة التي تساعد المتعلم على معرفة خطئه ، أو الإخبار عن خطأ غيره وبيان أسبابه ومن ثمَّ تصحيحه . ففي المذاكرة يراجع المتعلم ما كتبه ، وفي أثناء المراجعة يناقش المتعلم المعلومات ويتأملها ، ويكون ذلك حينئذٍ داعياً له لكشف خطئه والعمل على تصحيحه .

وفي المناظرة التي تتم غالباً بين مختلفي الرأي يمكن للمتعلم أن يعرف خطأ غيره ، فيصحح له فوراً ، أو خطأ نفسه عن طريق غيره ، وحينئذٍ يتم تزويد كل طرف بالمعلومات التي تعزز استجاباته الصحيحة ، وتصحح استجاباته الخطأ . وكذلك في المشاورة والمطارحة التي يتم فيهما إلقاء المسائل التي يراد معرفة حكمها ، أو الرأي فيها ، ومناقشتها ، والوقوف على صحتها ، وخطئها ، ومن ثمَّ تعزيز الصحيح منها ، وتصحيح خطئها . [الغزالي: ١١٧ ، الزرنوجي: ٧٠ ، ٧٥ ، الماوردي ، ٢٧٠ ، العلموي ، ١١٨].

قال النووي : (ويسألهم عما ذكره لهم من المهمات ، فمن وجده حافظاً مراعيّاً له أكرمه وأثنى عليه ، (. . .) ومن وجده مقصراً عقته (. . .) ويعيده له حتى يحفظه حفظاً راسخاً) . [النووي ، ٩٣] . وقال ابن جماعة : (إذا فرغ الشيخ من شرح درس فلا بأس بطرح مسائل تتعلق به على الطلبة ، يمتحن بها فهمهم وضبطهم ، فمن ظهر له استحكام فهمه له بتكرار الإصابة في جوابه شكره ، ومن لم يفهم تَلَطَّف في إعادته له) . [ابن جماعة ، ٥٩].

ويبدو واضحاً أيضاً مما ذكره النووي وابن جماعة الإشارة إلى التغذية الراجعة الإعلامية والتصحيحية والفورية؛ إذ إنه زود المتعلم بالمعلومات التي من شأنها اختبار مدى فهمه وحفظه لها ، ثمَّ عزَّز الصحيح منها ، وصحح الخطأ فيها مباشرة .

وصرح المغراوي بالتغذية الراجعة الإعلامية والتصحيحية والفورية ، وأشار إلى ذلك القابسي أيضاً ، حينما أوردا الحديث المعروف في رُقِيَّة^(١) بعض الصحابة

(١) الرقية : مجموعة من الأذكار التي تقرأ على المريض بشروط وهيئات معينة طلباً للشفاء . يشير الحديث إلى جواز أخذ الأجرة على الرقية ، ولا ينبغي الاعتماد على الرقية وحدها في علاج الأمراض المادية والعضوية - كما يفعل بعض الناس - إنما يكون علاج هذه الأمراض =

بالباتحة ، وأخذ الأجر عليها ، لسيد القوم الذي لدغ ، فأتوا يسألون النبي عليه الصلاة والسلام عن مدى مشروعية هذا الفعل ، قال المغراوي : (فقال عليه السلام : «اقسموا واضربوا لي بينكم بسهم» ، تصحيحاً لحديثه ، وإعلاماً بصحته) [الحديث أخرجه البخاري ، كتاب الطب ، باب النفث في الرقية ٥/٢١٦٩] [المغراوي ، ٧٣ ، وينظر القابسي ، ٢٥٧ - ٢٥٨].

٥ / ٢ - مبدأ الاستمرار في التعلم

١ / ٥ / ٢ - أهمية الاستمرار في التعلم وثمراته :

يعدُّ الاستمرار على التعلم من المبادئ التي تميّز التربية الإسلامية من غيرها ، فقد رَغِبَ المتعلم وغرست فيه حب استمرارية طلب العلم ، من خلال بيان فضائل عملية التعلم ، والثواب الذي يحصّله المتعلمون في الدنيا والآخرة . قال النبي ﷺ : «لن يشبع المؤمن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة» . [الترمذي : كتاب الإيمان ، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة ، ٥ / ٥ ، وقال عنه : (حديث حسن غريب)].

والمراد بالخير في الحديث العلم . وقوله ﷺ : «منهومان لا يشبعان منهوم في العلم لا يشبع منه ، ومنهوم في الدنيا لا يشبع منها» . [الحاكم : كتاب العلم : ١٩٩٠ ، ١ / ٨٦٩ ، وقال فيه : (حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه) ، والبيهقي في «شعب الإيمان» ، واللفظ له ، ٧ / ٢٧١ . وقال عنه العجلوني في «كشف الخفاء» : ٢ / ٢٨٠ بعد أن ذكر روايات أخرى له : (كانت مفرداتها ضعيفة ، فبمجموعها يتقوى الحديث)]. وجه الاستدلال بهذا الحديث على الاستمرار في طلب العلم هو أنّ النهمة تدل على شدة الحرص على الشيء ، والحرص على حصوله يتطلب الاستمرار في طلبه . فكان طالب العلم حريصاً على طلب العلم^(١) .

إنّ الاستمرار في التعلم ينمّي في المتعلم العلم والاستعداد له ، ويرفع من مستواه العقلي والوجداني ؛ لأن حياة العلم الاستمرار به ، والاستمرار يضمن فاعلية

= بالوسائل الطبية العلمية الحديثة ، ولا بأس بضم الرقية إلى تلك الوسائل في علاج بعض الأمراض إذا ثبت نفعها بنص أو تجربة .

(١) «النهمة شدة الحرص على الشيء» (. . .) إن ذهب في الحديث إلى الأصل كان لا يشبعان استعارة لعدم انتهاء حرصهما [المنائي : ١٣٥٦ هـ ، ٦ / ٢٤٥].

التعلم ، ويحقق نتائج مثلى فيه ، والانقطاع عنه يؤثر في مستوى دافعية المتعلم ، ومن ثمّ تدني مستوى تعلمه ؛ لأن الانقطاع يحرم المتعلم من الثبات على ما تعلم ونمو تعلمه .

لقد تحدث علماء المسلمين عن أهمية الاستمرار في التعلم ، والمواظبة عليه ، والوسائل والأساليب التي من شأنها ضمان استمرار التعلم . وجعل الغزالي حاجة الإنسان إلى العلم والاستمرار به ، كحاجته إلى الطعام والشراب ، والإنسان يحتاج إلى طعامه وشرابه منذ ولادته إلى وفاته ، بقوله : (وقيل : إنّ علم ما يتعلق بنفسك في جميع الأحوال بمنزلة الطعام والشراب ، ولا بد لكل أحد من ذلك ، فإنّ حياة القلب به ، كما أنّ حياة البدن بهما) . [الغزالي ، ٤٤] . ونقل الغزالي أحاديث كثيرة ، ترغّب بالعلم والاستمرار في تحصيله ، بقوله : (قال عليه الصلاة والسلام : «اطلب العلم ولو بالصين» [أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» ، رقم /١٦٦٢ / ، ٢ / ٢٥٣] وقال عليه أشرف الصلاة والسلام : «اطلب العلم من المهد إلى اللحد» . [أخرجه ابن عبد البر في «فضل العلم» ١ / ٣٨] . [الغزالي ، ٤٣] .

شبه الرُّنُوجِي التعلم بالصناعة التي تحتاج دائماً إلى الاستمرار فيها من أجل تنميتها وتطويرها . فقال : (وينبغي لطالب العلم ألا يشتغل بشيء آخر غير العلم ، ولا يُعرض عن الفقه . قال محمد بن الحسن رحمه الله : (إنّ صناعتنا هذه من المهد إلى اللحد ، فمن أراد أن يترك علمنا هذا ساعة ، فليتركه الساعة) . [الرُّنُوجِي ، ٨٦] .

وقال الغزالي مبيّناً ثمرات الثبات على التعلم والاستمرار فيه : (فإنّ العلم لا يحصل إلا بالثبوت ، والدوام ، كما قيل : (من ثَبَّتَ ثَبَّتَ) ، قال أبو حنيفة رحمه الله : (ثَبَّتْ عند حماد^(١) رضي الله عنه فَنَبَّتْ) . [الغزالي ، ٨٢] . ويرى ابن خلدون أن الاستمرار في التعلم والمواظبة عليه يجعل من العلم ملكة راسخة في نفس المتعلم ، يحصل بها الذكاء . [ابن خلدون ، ١٢٢١] .

وينصح الرُّنُوجِي المتعلم بالمواظبة على التعلم ، ويبيّن أثرها في نفس المتعلم ، وثمرتها في الاستمرار بالتعلم ، مستشهداً بوصية أبي حنيفة لتلميذه أبي يوسف حيث قال فيها : (كنت بليداً فأخرجتك المواظبة ، وإياك والكسل فإنه شؤم ، وآفة عظيمة) . [الرُّنُوجِي ، ٥٦ - ٥٧] .

(١) حماد بن سليمان الكوفي ، المتوفى سنة ١٢٠ هـ ، شيخ أبي حنيفة .

وينصح الرُّزْنُوجِي المتعلم أيضاً الاستمرار بالتعلم وعدم تركه ولو لفترة قصيرة ، مبيّناً له ثمراته؛ المادية والمعنوية ، فإنّ الانقطاع عن التعلم ولو لفترة يحدّ من التعلم ويورث الكسل ، ويضعف الهمة ويذني مستوى دافعية المتعلم . فالثمرات المادية تتعلق بتنمية التعلم ، والتفوق فيه . فقد استلهم الرُّزْنُوجِي ذلك من أستاذه الذي تفوق على أقرانه بفضل استمراره في التعلم والمواظبة عليه ، بقوله: (وينبغي ألا يكون لطالب العلم فترة ، فإنها آفته ، وكان أستاذنا شيخ الإسلام برهان الدين رحمه الله تعالى يقول: إنما فُتُّ على شركائي بأني لم تقع لي الفترة في التحصيل). [الرُّزْنُوجِي ، ٨٢ - ٨٣].

أما الثمرات المعنوية فتتمثل في لذة العلم ، والتخفيف من شدة سكرات الموت . قال الرُّزْنُوجِي: (وهكذا ينبغي للفقير أن يشتغل به في جميع أوقاته فحينئذ يجد لذة عظيمة في ذلك (. . .) وقيل: رُئي محمد [بن الحسن] في المنام بعد وفاته ، فقيل له: كيف كنت في حال النزح (سكرات الموت) فقال: كنت متأملاً في مسألة من مسائل المُكَاتَب^(١) ، فلم أشعر بخروج روعي). [الرُّزْنُوجِي ، ٨٦ - ٨٧].

واستدل الرُّزْنُوجِي بأهمية الاستمرار في طرائق التعلم والتعليم ولا سيما المناظرة ، وآفة الانقطاع عنها أيضاً بما نقله عن شيخ الإسلام علي بن محمد الإسيبجاني الحنفي فقال: (وقع له في زمان تحصيله وتعلمه فترة اثنتي عشرة سنة بانقلاب الملك ، فخرج مع شريكه في المناظرة إلى حيث يمكنها الاستمرار في طلب العلم ، وظلاً يدرسه معاً اثنتي عشرة سنة فصار شريكه شيخ الإسلام للشافعيين ، وكان هو شافعيًا). [الرُّزْنُوجِي ، ٨٣].

ويوصي الغزالي المتعلم أيضاً إذا ما أراد أن يصل إلى أعلى رتب العلم بأن يهتم في كل وقت بتحصيل العلم والاستمرار فيه . قال الغزالي: (ويجب على المتعلم أن يكون مستفيداً في كل وقت؛ حتى يحصل له الفضل وأن يكون معه في كل وقت محبرة؛ حتى يكتب ما سمعه من الفوائد ، ولذلك قيل: من حَفِظَ فَرّاً ، ومن كتب قَرّاً). [الغزالي ، ١٠٦ ، وينظر: الرُّزْنُوجِي ، ٩٤ - ٩٥ ، ابن رشد ، ٣١].

٢/٥/٢ - وسائل استمرار التعلم: .

تحدث علماء المسلمين عن استمرار التعلم ، ووقته الذي يبدأ من المهد ،

(١) المُكَاتَب: العبد يتفق مع سيده على مال يقسّطه له ، فإذا ما دفعه صار حرّاً.

وينتهي بالموت. واهتموا بذكر الوسائل التي تعزز المتعلم لضمان استمراره في التعلم. ويمكن استنتاج هذه الوسائل من خلال أقوالهم المتفرقة حول التعلم من خلال الفقرات الآتية:

١/٢/٥/٢- تنويع التعلم:

تحدث علماء المسلمين عن تنوع التعلم وأثره في القضاء على سامة المتعلم ، وملله ودفعه للاستمرار في التعلم ، بحيث إذا سئم من علم اشتغل بآخر ، فيبقى مستمراً بطلب العلم. قال الرُّزُّنُوجِي: (وينبغي لطالب العلم أن يستغرق جميع أوقاته ، فإذا ملَّ من علم اشتغل بعلم آخر ، وكان ابن عباس رضي الله عنه إذا ملَّ من علم الكلام ، يقول: (هاتوا ديوان الشعراء). وكان محمد بن الحسن (...). لا ينام (...). وكان إذا ملَّ من نوع ينظر في نوع آخر). [الرُّزُّنُوجِي ، ٨٩ ، وينظر: الغزالي ، ١٠٤ ، ١٠٦].

٢/٢/٥/٢- تكرار التعلم:

إذا ما أراد المتعلم ضمان ما تعلم ، والاحتفاظ به لفترة طويلة ، وجب عليه أن يتبع أسلوب التكرار الذي يعود المتعلم على التعلم ، والاستمرار فيه. قال الغزالي: (ويجب على المتعلم مواظبة الدرس ، والتكرار في أول الليل وآخره). [الغزالي ، ١٠٩]. وقال الرُّزُّنُوجِي: (وينبغي لطالب العلم أن يعدّ ويقدر لنفسه تقديراً في التكرار ، فإنه لا يستقر قلبه حتى يبلغ ذلك المبلغ). [الرُّزُّنُوجِي ، ٨١ - ٨٢].

وقال أيضاً: (فإنه إذا قلَّ السَّبْق^(١) وكثر التكرار والتأمل يُدْرِك ويُفهم). [الرُّزُّنُوجِي ، ٦٨ ، وينظر: الغزالي ، ١١٦]. وبين ابن خلدون أن العلم وتنميته إنما يحصل بالتكرار ، فقال: (ويحصل العلم في ثلاث تكرارات ، وقد يحصل البعض في أقل من ذلك بحسب ما يتيسر عليه). [ابن خلدون ، ١٢٣٣].

إنَّ ما ذكره أولئك العلماء ، وأشاروا إليه من الاستمرار بالتعلم ، وعلاقته بالفهم والتكرار وأهميته في التعلم ، واحتفاظ المتعلم بالمعلومات وإعادة بنائها ، وتجديدها واستمرارها وتنظيم تكرارها أكده الباحثون التربويون. قال منصور: (يؤدي التكرار دوراً هاماً في عملية التذكر (...). وأمر لا بد منه لاستكمال مهمة

(١) المراد بالسَّبْق الجزء الذي يدرسه المتعلم من المادة الدراسية.

الاستيعاب الشامل والمتعدد المستويات للمواد الدراسية (. . .) فتنظيم التكرار لا يقل أهمية عن التكرار نفسه (. . .) فإنّ المعلومات المتكررة يتم تذكرها جيداً ، وبعاد فهمها من جديد ، وبالتالي يؤدي التكرار إلى الثبت والتجديد ، وإعادة البناء). [منصور ، ١٩٩٣ ، ٦٨ - ٦٩].

٣/٢/٥/٢ - الصبر على التعلم:

أشار الغزالي وغيره إلى أنّ الصبر أساس التعلم ومنطلقه ، فحفظ المتعلم العلم والاستمرار عليه ، مرتبط بمقدار صبره على تحصيله . قال الغزالي : (بقد سعيك تنال ما تتمنى ، فإنّ العلم كثر لا يحصل إلى بالمشقة . فإنّ من لم يصبر على مشقة العلم ساعة يبقى في ظلمات الجهل أبداً). [الغزالي ، ١٠٩ ، وينظر : ابن خلدون ، ١٢٤٢ ، العلموي ، ٧٤]. وقال الرُّزُّوجي أيضاً مبيناً أهمية الصبر على التعلم وثمرته : (فمن صبر على ذلك ، وجد لذة تفوق سائر لذات الدنيا). [الرُّزُّوجي ، ٨٦].

٣/٥/٢ - معوقات الاستمرار على التعلم :

تعرض الماوردي لبعض الأشياء التي يمكن أن تحدّ من عملية التعلم والاستمرار فيه ؛ ككبر سن المتعلم واستحيائه وقلة دخله ، بقوله : (ربما امتنع الإنسان عن طلب العلم لكبر سنه ، واستحيائه من تقصيره في صغره أن يتعلم في كبره ، فرضي بالجهل أن يكون موسوماً به ، وآثاره على العلم (. . .) وهذا من خدع الجهل وغرور الكسل ؛ لأن العلم إذا كان فضيلة فرغبة ذوي الأسنان فيه أولى ، والابتداء بالفضيلة فضيلة ، ولأن يكون شيخاً متعلماً أولى من أن يكون شيخاً هرمياً ، وربما امتنع من طلب العلم لتعذر المادة ، وشغله اكتسابها على التماس العلم). [الماوردي ، ٣٠].

٣ - الخاتمة

يبدو مما سبق أنّ علماء المسلمين قد أشاروا إلى أهم مبادئ التعلم ، ومضامينها التربوية والنفسية ، فتحدثوا عن الدوافع وأنواعها؛ كالدافع المعرفي ، ودافع التنافس والحاجة إلى التقدير ، ودافع الإنجاز. وتعدّ الدافعية عند أولئك العلماء بأنواعها المختلفة دافعية ذاتية تنبعث من داخل المتعلم ، وخارجية مرتبطة بالمكافآت ، ولكنهم ركزوا على المكافآت الداخلية التي عبروا عنها بلذة العلم ، أو ارتياح المتعلم ورضاه عما حققه من مستوى معرفي ، وربطوا هذه الدوافع بالسلوك وتوجيهه وتصحيحه من خلال القدرة على التحكم بالدوافع .

وما ذكره أولئك العلماء في مجال الدافعية أكدته الدراسات التربوية الحديثة في مجال علم النفس التي بيّنت أنّ أصحاب الإنجاز العالي يصعب استثارة دوافعهم بالمكافآت الخارجية ، ويؤدون العمل أفضل حينما تكون دوافعهم ذاتية داخلية ، وأن عملية التعليم والتعلم تقف على حسن استخدام علم النفس وما يتضمنه من قضايا توجه المتعلم نحو التعلم .

وأشار علماء المسلمين أيضاً إلى مبدأ التغذية الراجعة وأنماطها ووظائفها ، وربطوا بين المثير ، والاستجابة بعلاقة طردية؛ إذ يتكرر حدوث الاستجابة المحددة ، بحدوث المثير المحدد مسبقاً ، وفي ذلك تعزيز الاستجابة ، وهذا يمثل جوهر السلوك الاستجابي (الإشراط البافلوفي) الذي يقوم على الربط بين مثيرات واستجابات معينة .

وتحدث علماء المسلمين أيضاً عن مبدأ التدرج في التعليم والتعلم ، فذكروا التدرج من المحسوس إلى المجرد ، والتدرج من السهل إلى الصعب ، والتدرج من البسيط إلى المركب ، وهذه مبادئ مهمة في أصول التدريس وطرائقه .

وذكر علماء المسلمين أيضاً مبدأ الاستمرار في التعلم ، والعوامل المساعدة عليه ، ومعوقاته والوسائل التي تعمل على تحقيقه؛ كتنوع التعلم وتكراره والصبر عليه . وتحدثوا عن مبدأ الاستعداد وماهيته وأقسامه وعناصره؛ كالنية (التصميم) والورع والتوكل والمواظبة ، وربطوا بين همة المتعلم التي هي أمر داخلي انفعالي ، وجدّه الذي هو العمل المتمثل في السلوك ، وهو أمر خارجي ، وجعلوا العلاقة بينهما (الهمة والسلوك) تلازمية تبادلية ، بحيث تؤدي الهمة إلى جدّ ومواظبة ، بينما يؤدي الجدّ والمواظبة إلى الهمة ، وهو ربط سديد تؤكد بحوث علم النفس الحديثة .

